
الموسوعة القصصية الميسرة
قصص الأنبياء
الميسرة
السيد
محسن النوري الموسوي



قصص

الأنبياء والمرسلين عليهم السلام

الميسرة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م





للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠٣/٢٥٧٩٨٤ ـ فاكس: ٠١/٥٥٣٤٥٦ ـ ص.ب: ٢٥/٣٥٥ ـ غبيري ـ بيروت

Daralkatebalarabi@hotmail.com

قصص
الأنبياء والمرسلين عليهم السلام
الميسرة

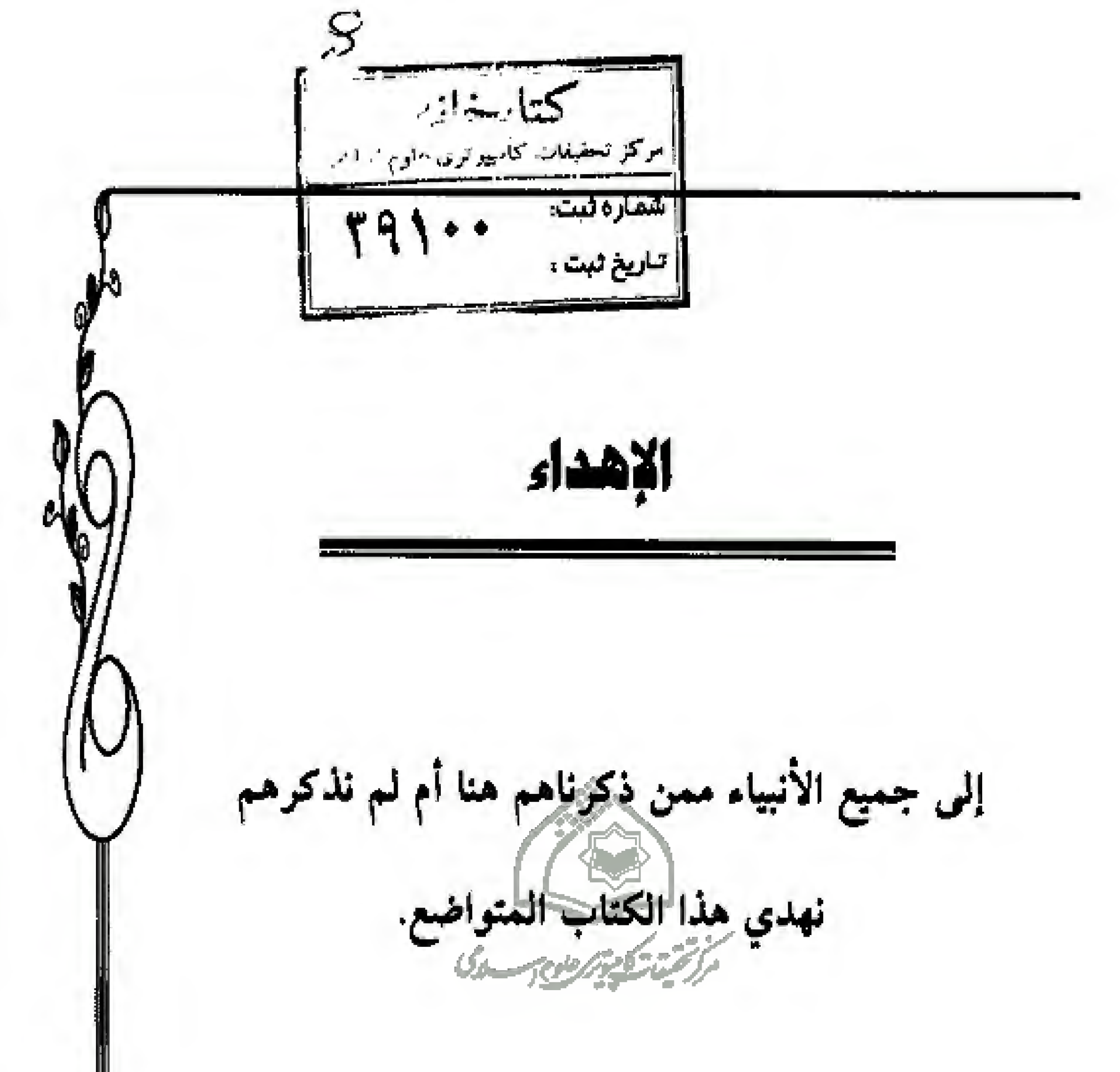


السيد محسن النوري الموسوي









الإهداء

إلى جميع الأنبياء ممن ذكرناهم هنا أم لم نذكرهم

نهدي هذا الكتاب المتواضع.

محسن الموسوي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد وآله الطاهرين وعلى جميع الأنبياء والصديقين.

هذا الكتاب يحتوي على جملة مهمة من قصص أغلب الأنبياء والمرسلين وفيها من الموعظة والعبرة الشيء الكثير في مجال التربية والتعليم.

حياة الأنبياء حياة غير عادية وليس هي كحياتنا ولهذا يتم تسليط الضوء على أبرز محطاتها لكي تنشر وتتعلم منها الأجيال عبر الزمن.

أعددنا هذا الكتاب وجمعنا فيه ما تمكنا جمعه من قصص الأنبياء التي خطتها أيادي بيضاء لعلمائنا الأعلام لعلها تكون خطوة في رفع المستوى الثقافي والأخلاقي والتربوي لأمتنا ومن الله السداد والتوفيق.

محسن الموسوي



مباهلة النبي محمد صلى الله عليه وآله

في تفسير القمي، عن الصادق عليه السلام: أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان سيدهم الأهتم والعاقب والسيد، وحضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون الناقوس وصلوا.

فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله هذا في مسجدك؟

فقال دعوهم فلما فرغوا دنوا من رسول الله فقالوا إلى ما تدعو؟

فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث.

قالوا: فمن أبوه؟

فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: قل لهم: ما تقولون في آدم، أ كان عبدا مخلوقا يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟

فسألهم النبي.

فقالوا نعم.

قال فمن أبوه؟

فبهتوا فأنزل الله: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب

الآية، وقوله: فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم إلى قوله: فنجعل لعنة الله على الكاذبين.

فقال رسول الله: فباهلوني فإن كنت صادقا أنزلت اللعنة عليكم، وإن كنت كاذبا أنزلت علي فقالوا أنصفت فتواعدوا للمباهلة فلما رجعوا إلى منازلهم قال رؤساؤهم السيد والعاقب والأهتم إن باهلنا بقومه باهلناه فإنه ليس نبيا، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله فإنه لا يقدم إلى أهل بيته إلا وهو صادق فلما أصبحوا جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام فقال النصارى: من هؤلاء؟ فقيل لهم هذا ابن عمه ووصيه وختنه علي بن أبي طالب، وهذه ابنته فاطمة، وهذا ابناه الحسن والحسين ففرقوا فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله نعطيك الرضا فاعفنا من المباهلة فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله على الجزية وانصرفوا.

❊❊❊❊❊❊

قصة عيسى وأمه في القرآن

كانت أم المسيح مريم بنت عمران حملت بها أمها فنذرت أن تجعل ما في بطنها إذا وضعته محررا يخدم المسجد وهي تزعم أن ما في بطنها ذكور فلما وضعتها وبان لها أنها أنثى حزنت وتحسرت ثم سمتها مريم أي الخادمة وقد كان توفي أبوها عمران قبل ولادتها فأتت بها المسجد تسلمها للكهنة وفيهم زكريا فتشاجروا في كفالتها ثم اصطلحوا على القرعة وساهموا فخرج لزكريا فكفلها حتى إذا أدركت ضرب لها من دونهم حجابا فكانت تعبد الله سبحانه فيها لا يدخل عليها إلا زكريا وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وقد كانت(عليها السلام) صديقة، وكانت معصومة بعصمة الله، طاهرة مصطفاة محدثة حدثها الملائكة: بأن الله اصطفاها وطهرها وكانت من القانتين ومن آيات الله للعالمين سورة آل عمران آية ٣٥ - ٤٤، سورة مريم آية ١٦، سورة الأنبياء آية ٩١، سورة التحريم آية ١٢.

ثم إن الله تعالى أرسل إليها الروح وهي محتجبة فتمثل لها بشرا سويا، وذكر لها أنه رسول من ربها ليهب لها بإذن الله ولدا من غير أب، وبشرها بما سيظهر من ولدها من المعجزات الباهرة، وأخبرها

أن الله سيؤيده بروح القدس، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولا إلى بني إسرائيل ذا الآيات البينات، وأنبأها بشأنه وقصته ثم نفخ الروح فيها فحملت بها حمل المرأة بولدها الآيات من آل عمران: ٣٥ - ٤٤.

ثم انتبذت مريم به مكانا قصيا فاجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا فأتت به قومها تحمله سورة مريم آية ٢٠ - ٢٧، وكان حمله ووضعه وكلامه وسائر شئون وجوده من سنخ ما عند سائر الأفراد من الإنسان.

فلما رآها قومها - والحال هذه - ثاروا عليها بالطعنة واللوم بما يشهد به حال امرأة حملت ووضعت من غير بعل، وقالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا؟ قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا، والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا: سورة مريم آية - ٢٧ - ٣٣ فكان هذا الكلام منه عليه السلام كبراعة الاستهلال بالنسبة إلى ما سينهض على البغي والظلم وإحياء

شريعة موسى عليه السلام وتقويمه، وتجديد ما اندرس من معارفه، وبيان ما اختلفوا فيه من آياته.

ثم نشأ عيسى عليه السلام وشب وكان هو وأمه على العادة الجارية في الحياة البشرية يأكلان ويشربان وفيهما ما في سائر الناس من عوارض الوجود إلى آخر ما عاشا.

ثم إن عيسى عليه السلام أوتي الرسالة إلى بني إسرائيل فانبعث يدعوهم إلى دين التوحيد، ويقول: إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم، إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه.

وكان يدعوهم إلى شريعته الجديدة وهو تصديق شريعة موسى عليه السلام إلا أنه نسخ بعض ما حرم في التوراة تشديدا على اليهود، وكان يقول: قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه، وكان يقول: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.

وأنجز عليه السلام ما ذكره لهم من المعجزات كخلق الطير وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات بإذن الله.

ولم يزل يدعوهم إلى توحيد الله وشريعته الجديدة حتى أيس

من إيمانهم لما شاهد من عتو القوم وعنادهم واستكبار الكهنة والأحبار عن ذلك فانتخب من الشرذمة التي آمنت به الحواريين أنصارا له إلى الله.

ثم إن اليهود ثاروا عليه يريدون قتله فتوفاه الله ورفعه إليه، وشبه لليهود: فمن زاعم أنهم قتلوه، ومن زاعم أنهم صلبوه، ولكن شبه لهم آل عمران آية ٤٥ - ٥٨، الزخرف آية ٦٣ - ٦٥، الصف آية ٦ و١٤، المائدة آية ١١٠ و١١١، النساء آية ١٥٧ و١٥٨ فهذه جمل ما قصه القرآن في عيسى بن مريم وأمه(١).

******

(١) الميزان في تفسير القرآن ج٣.

عمر نوح عليه السلام

روى الكليني في الكافي الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال:

كان نوح ـ عليه السلام ـ قد عمر في الدنيا ألفين وثلاثمائة سنة، منها: ثمانمائة وخمسين سنة قبل أن يبعث رسولاً.

وألف عام إلا خمسين عاما بعد البعثة بين قومه مشغولاً بالدعوة والتبليغ.

وخمسمائة سنة بعد أن خرج من السفينة وجف الماء، فبنى المدن وأسكن أولاده فيها.

وفي أحد الأيام جلس النبي نوح عليه السلام في الشمس واذا بملك الموت قد جاءه وقال: السلام عليك.

فرد نوح عليه السلام، وقال: لأي شيء جئت يا ملك الموت؟

قال: جئت لقبض روحك.

فقال: أمهلني انتقل من عند الشمس إلى الظل.

فأمهله(١).

ولما انتقل إلى الظل، قال نوح عليه السلام: يا ملك الموت! افعل بما أمرت به، فكل عمري الذي قضيته كان مثل الانتقال من الشمس إلى الظل(٢).

******



(١) وذلك لأنه كان مأموراً بقبض روحه في الظل لا في الشمس، او لانه كان مجازاً من قبل الله في هذا الإمهال.

(٢) راجع بحار الأنوار ج١١ ص٢٨٥ ح٢ باب ١ وفيه: (ثم ان ملك الموت جاءه وهو في الشمس، فقال: السلام عليك، فردّ عليه نوح عليه السلام وقال له: ما حاجتك يا ملك الموت، فقال: جئت لقبض روحك، فقال: له تدعني أدخل من الشمس إلى الظل، فقال له: نعم، فتحول نوح عليه السلام ثم قال: يا ملك الموت فكان ما مرّ بي في الدنيا مثل تحولي من الشمس إلى الظل، فامض لما أمرت به، قال: فقبض روحه عليه السلام) الحديث.

يوسف عليه السلام والمواساة

ورد في تاريخ النبي يوسف عليه السلام انه عندما كان ملكاً في مصر وكانت كلّ الخزائن تحت تصرّفه وقد أنقذ شعب مصر من قحط سبع سنوات، كان عليه السلام في فترة سلطانه ضعيفاً جدّاً.

فجاء الأطباء عنده وسألوه عن سبب ذلك.

فقال عليه السلام: عندي ألم خفي.

قالوا: أخبرنا عنه لعلّنا نستطيع علاجه.

قال عليه السلام: إنّ نفسي تأمرني كلّ يوم أن أشبعها وأنا أبقيها جائعةً دائماً.

قالوا: فكم سنة أنت تأكل دون الشبع؟.

قال عليه السلام: سبع سنوات.

قالوا: لماذا لا تأكل حتى الشبع؟.

قال عليه السلام : اني أخاف يوم القيامة أن يقول لي الله تعالى، يا يوسف: لماذا نمت وأنت شبعان ورعاياك من الناس ينامون جياعاً؟

فماذا يكون جوابي؟.

رسول الله صلى الله عليه وآله وأوائل المؤمنين

روى عفيف الكندي قال: ذهبت إلى مكة المكرمة زمن الجاهلية لشراء الملابس والعطور، وكنت جالسا مع العباس بن عبد المطلب وكان رجلاً تاجراً قبل أن يظهر أمر النبي صلى الله عليه وآله.

فجاء شاب فنظر إلى السماء حين ارتفعت الشمس، ثم استقبل الكعبة فقام يصلي.

ثم جاء غلام فقام عن يمينه، ثم جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب.. فركع الغلام والمرأة، ثم رفع الشاب فرفعا، ثم سجد الشاب فسجدا.

فقلت: يا عباس، أمر عظيم.

فقال العباس: أمر عظيم.

أتدري من هذا الشاب؟ هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي.

أتدري من هذا الغلام؟ هذا علي بن أبي طالب ابن أخي.

أتدري من هذه المرأة؟

هذه خديجة بنت خويلد زوجة محمد صلى الله عليه وآله.

إن ابن أخي هذا حدثني: ان ربه رب السماوات والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، ولا والله ما على ظهر الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

يقال: ان عفيف الكندي وهو أخ والأشعث بن قيس، لم يظهر منه انحراف، بل كان يوبخ أخاه الأشعث لمشاركته بقتل علي عليه السلام ، كما في بعض الروايات.

وأما العباس بن عبد المطلب فهو عم الرسول صلى الله عليه وآله وصن وأبيه، وكان أكبر من الرسول صلى الله عليه وآله سناً بسنتين أو ثلاث سنين، وآمن بالنبي صلى الله عليه وآله قبل الهجرة، أقام بمكة المعظمة، وكان يكتب أخبار مكة قبل فتحها إلى الرسول صلى الله عليه وآله، وعمر بعد النبي صلى الله عليه وآله، وابتلي بالعمى أواخر عمره، ولبى نداء ربه سنة ٣٢ هـ بالمدينة المنورة، ودفن بالبقيع.

وخديجة بنت خويلد هي سيدة نساء مكة، وزوجة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، تزوجها صلى الله عليه وآله وعمره الشريف(٢٥) سنة، وجميع أولاد الرسول صلى الله عليه وآله منها عدا إبراهيم، وهي أول امرأة آمنت بالنبي صلى الله عليه وآله، وقد وردت روايات كثيرة في فضائلها ومناقبها.

منها: أنها من أفضل نساء أهل الجنة(١).

توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين في شهر رمضان عن عمر ناهز الـ(٦٥) عاما، ودفنت في (الحجون) بمكة المكرمة.

رسول الله ﷺ وصحابته

ورد في التاريخ ان عمر اعترض على صلح الحديبية، وقال: يا رسول الله! ألم نك مسلمين؟

قال ﷺ: بلى.

قال: ألم يكونوا كفارا؟

قال ﷺ: بلى.

قال: فلماذا نعطي الدنية في ديننا؟

قال ﷺ: أنا اعمل بما أمرت به.

فلما خرج من عند الرسول ﷺ، قال لأبي بكر: ألم يعدنا

(١) راجع الخصال ص٢٠٦ باب ان افضل نساء اهل الجنة أربع الحديث٢٢ و٢٣ ؛ وفيه: (قال رسول الله ﷺ أفضل نساء أهل الجنة أربع: خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون).

النبي ﷺ بأننا سوف ندخل مكة، في حين أننا الآن نرجع أذلاء خائبين، ولو كانت لنا العزة لما قبلنا الذلة.

فقال له أبو بكر: ويحك! الزم ركابه، والله إنه لرسول الله، والله لا يضله.

ثم أضاف أبو بكر: فهل قال لك النبي ﷺ: بأننا سوف ندخل مكة هذا العام؟

قال: لا.

قال أبو بكر: فسوف تدخل مكة حتماً.

وعندما فتح رسول الله ﷺ مكة، أخذ بيده مفاتيح الكعبة، وقال لعمر: هذا ما وعدت به.

كان صلح الحديبية في شهر ذي القعدة، من السنة السادسة للهجرة النبوية الشريفة، ولما علم كفار مكة بمنزل الحديبية، اتخذوا منزلا في مكة قبله، وبعد محادثات طويلة توصلوا إلى معاهدة صلح بينهم وبين الرسول ﷺ، تقضي أن لا تكون محاربة بين النبي ﷺ وأهل مكة مدة عشر سنوات، ويسافر الطرفان كل منهما إلى بلاد الآخر بدون ممانعة، وكل من أسلم من الكفار فعلى قريش أن لا تؤذيه، وكل من يلتجئ لقريش، فعلى المسلمين أن لا يعترضوا طريقه.

وفي السنة القادمة أدى رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون معه فريضة العمرة، ولم يبق في مكة أكثر من ثلاثة أيام.

وبهذه الحكمة الرائعة مهّد الرسول صلى الله عليه وآله لفتح مكة عاصمة الكفر يوم ذاك، بدون حرب أو إراقة دم(١).

رعاية رسول الله صلى الله عليه وآله للعلم

اسر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله سبعين محارباً من الكفار في معركة بدر، وكان عدد من أهل مكة يعرفون القراءة والكتابة، بعكس أهل المدينة حيث كانوا أميين.

وكان من الأسراء من له القدرة المالية ولكنه كان جاهلا لا يعرف القراءة والكتابة، فدفع الفدية وأطلق سراحه.

وأما من كان ملما بالقراءة والكتابة، فكان يأتي إليه الرسول صلى الله عليه وآله بعشرة من صبيان المدينة، يعلمهم القراءة والكتابة، وبعد تعلم هؤلاء القراءة والكتابة يقوم الرسول صلى الله عليه وآله

---

(١) راجع كتاب(ولأول مرة في تاريخ العالم.)

قصة إبراهيم عليه السلام الكاملة

كان رجلٌ اسمُهُ آزر، منجماً لملك جبّارٍ يُسمَّى(نمرود) وكان(نمرود) كافراً باللهِ تعالى.

فقال آزر للملك يوماً: إني أرى في حسابِ للنجوم: أنّهُ سينشأُ رجلٌ ينسخُ دينَكَ أيُّها الملكُ، ويدعو إلى دينٍ جديد

فسأل الملك آزر: وهل وُلِدَ هذا المولود؟

قالَ آزر: لا..

قالَ الملك: ينبغي أن يفرّق بين الرجالِ والنساءِ، حتى لا يحصلَ تزاوج، ليكونَ بينهما نسلٌ.

ثمّ أمَرَ الملكُ بمفارقة الرجالِ للنساء، ولكن شاء اللهُ أن تحمل أمُّ(إبراهيم) بهذا المولود. فحملت.. وأخفَتْ حملها عن الناس، حتى عن أبيه. فلمّا أخذ أمّ(إبراهيم) الطلق، ذهبتْ إلى مكانٍ مستترٍ ووضعتْ بإبراهيم، خوفاً على ولدها، ثم قمطته، ورجعت إلى دارها. وكانت الأمّ تختلف إلى ولدها وكان ينمو وإبراهيم نمواً سريعاً حتى بلغَ مبلغَ الفتيان.

واشتدّ حكمُ نمرود على الأولاد، فكان يقتل كلَّ ولد ذَكر. ولكن شاءَ الله أن يبقى إبراهيم في أمنٍ من الملك السفَّاك.

النظر في خلق الله

خرج ذات يوم إبراهيمُ من مخبئهِ، وعمرُه إذ ذاك ثلاثَ عشرة سنةً. فنظر إلى آثار قدرة الله تعالى في السماوات والأرض، وشاء الله أن يلفت نظر إبراهيم إلى آيات الكون

(وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماواتِ والأرض وليكونَ من الموقنين) وهكذا، كان ينظرُ إلى آياتِ الله تعالى، حتى قربت الشمس للأفول.

(فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً) في السماء وكان الكوكبُ(زهرة)، ورأى إنّ جماعة من الناس يعبدونه، ويخضعون له فتعجّب من فعلهم هذا.

و(قال) مستنكراً عبادتهم للكوكب:(هذا ربي)؟ ونظر إليهم في صمت! لكن كان يتحيّن الفرصةَ، للردّ عليهم..

فلمّا(أفل) غربَ الكوكبُ.. واختفى عن الأبصار توجّهَ إلى أولئك النفر الذين كانوا يعبدون الكوكب و(قال) لهم:(لا أحبُّ الآفلين).

* * *

ثم مرّ بجماعة أخرى، فرآهم يخضعون للقمر ويعبدونه.

(فلما رأى القمر بازغاً) طالعاً من الأفق.. ورأى أن أولئك النفر يعبدونه(قال هذا ربي)؟! مستنكراً فعلهم، متعجباً من عبادتهم!!

لكنّه صبر، وانتظر، حتى يرد عليهم، وتحيّن الفرصة!(فلما أفل) اختفى تحت الأفق! توجّه إلى القوم، و(قال):(لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضّالّين).

* * *

وبعد ذلك.. بقي إبراهيم، إلى أن طلعَ الصبحُ، وخرجت الشمس وإذا به يمرّ بجماعة، يسجدون للشمس، ويعبدونها!

(فلما رأى الشمس بازغةً) ورأى أنّ القوم يخضعون أمامها(قال هذا ربّي هذا أكبر)؟! مستنكراً فعلهم، متعجّباً منهم، كيف يتخذون الشمس إلهاً؟!

لكنه صبر، حتى يردّ عليهم.. وإذا بالشمس تميل نحو الغروب.

(فلما أفلت) وغابت عن الأبصار.. توجه إلى أولئك النفر الذين كانوا يعبدونها و(قال يا قوم إني بريء مما تُشركون) وكيف تجعلون لله شريكاً؟ إن(الزهرة) و(القمر) و(الشمس) ليست بإله.

(إنّي وجهتُ وجهي للذي فَطَرَ السماواتِ والأرض) خلقها،

وأبدع صُنعها..(حنيفاً) مائلاً عن الشرك إلى الإيمان بالله(وما أنا من المشركين).

* * *

كان(آزر) منجّم الملك(نمرود) عم إبراهيم، وكان عارفاً بنحت الأصنام، فكان ينحتها ويعطيها لأولاده، حتى يبيعوها للناس. وكان إبراهيم يحترم عمّه(آزر)، حتى أنه كان يناديه:(يا أبه)! وقد أحبَّ آزرُ ولد أخيه حباً شديداً.

ولما كبر إبراهيم ورشد، دفع إليه(آزر) بعض الأصنام التي كان قد نحتها، وأمره أن يبيعها، كما يبيع أخوته. لكن إبراهيم، كان نبياً عظيماً، يعلم إنّ هذه الأصنام ليست بآلهة، وإنما هي أشياء منحوتة. فكان يعلّق في أعناقها الخيوط.. ويجرّها على الأرض ويقول:

من يشتري ما لا يضرُّه ولا ينفعُه؟

وكان يستهزئ بالأصنام.. فيُغرّقها في الماء والوحل.. ويقول لها:

اشربي.. وتكلمي.

* * *

وفي ذات يوم، وشى أُخوتُه خبر ما يفعلُ إبراهيمُ بالأصنام إلى(آزر) فنهاهُ آزرُ عن هذا العمل.. فلم ينته إبراهيم، عند ذلك،

اغتاظ آزر فحبس إبراهيمَ في منزله ولم يدَعْهُ يخرج.

ولما انكشف أمرُ إبراهيمَ عند(آزر) وأنه يعبد الله تعالى ولا يعبد الأصنام، التي كان(آزر) يعبدها، ذهب إبراهيم إليه، ليدعُوه إلى الله، وأخذ يدعوه بكلِّ أدبٍ ولطفٍ، قال:(يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يغني عنك شيئاً)؟

(يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِك) وقد علمت أن هذه الأصنام ليست بآلهة، وإنما الإلهُ هو الله الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما(فاتبعني أهدِكَ صراطاً سوياً).

(يا أبتِ لا تعبدْ الشيطان) فانك إذا عبدتَ الأصنامَ، كنت عبدتَ الشيطان لأنك قبلت قوله، وخالفت أوامر الله(إن الشيطان كان للرحمن عصيّاً).(يا أبتِ إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن).

وهكذا أخذ إبراهيم، ينصح عمّه(آزر) بكلِّ أدب ولطف، لكن عمّه اغتاظ من مقالة إبراهيم، و(قال أراغِب أنت عن آلهتي يا إبراهيم)؟! وتعبدُ إلهاً آخر؟!(لئنْ لم تنتهِ) عن مقالك هذا،(لأرجمنَّكَ) بالحجارة، حتى تموتَ.

ثم طرد إبراهيم من عنده،(و) قال له:(اهجرني ملياً): تغيّب عني مدة مديدة، حتى لا أراك.

ولما رأى إبراهيم هذه الخشونة والتهديد من آزر، ودّعه وداع متأدب،(قال سلام عليك) سلامُ وداع.

(سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً) وأطلب منه أن يغفر لك(وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربّي شقياً) وانصرف إبراهيم من عنده كئيباً.

* * *

وشرع إبراهيم يدعو إلى الله تعالى، ويأمر قومه بنبذ الأصنام، ولكن.. القوم لم يستجيبوا لإبراهيم دعوته وأصرّوا على الشرك(وحاجّة قومه) في ألوهيّة الأصنام.. قالوا: إن الأصنام هي الآلهة، واللازم علينا أن نعبدها.

(قال أتحاجّوني في الله) وتدعوني إلى أن اترك الله(وقد هدانِ ولا أخاف ما تشركون به) فإني لا أخاف من آلهتكم، وأي ضرر يمكن أن يضرّني به الصنم أو الكوكب والقمر والشمس؟ كلاّ! إنها لا تضر ولا تنفع(إلا أن يشاء ربي شيئاً) فانّ ربي هو الذي يضر وينفع، وأن أصنامكم لا تعلم شيئاً(وسع ربي كلّ شيءٍ علماً) يعلم كل شيء(أفلا تتذكرون)؟

ثم خوفهم إبراهيم من عذاب الله، قال:(وكيف أخاف ما أشركتم

ولا تخافون أنكم أشركتم بالله) وجعلتم له شريكاً كذباً، لكنّ القوم أصرّوا في العناد.. ولم ينفعهم كلام إبراهيم. ثم أخذ ينصحهم مرّة ثانية.

(إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون)؟

(قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين).

(قال هل يسمعونكم إذ تدعون)؟

قالوا: لا.. إنها أصنام من جماد لا تسمع دعوتنا.

قال: هل (ينفعونكم أو يضرّون)؟

قالوا: لا.. إنها لا تتمكّن من جلب نفع أو دفع ضرر.

قال: فكيف تعبدون ما لا يسمع.. ولا ينفع.. ولا يدفع؟

﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ وإنا نتبع آباءنا تقليداً لهم.

﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدوّ لي إلا رب العالمين﴾ إن الأصنام أعداء الإنسان، إنها توجب للإنسان شرّ الدنيا وشرّ الآخرة. أمّا الله تعالى فهو الذي يدبّر أمور الإنسان:﴿الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين﴾. ولكنّ القوم لم يقبلوا

كلام إبراهيم، وركبوا رؤوسهم، ولم يؤثر فيهم نصحه ومنطقه.

***

حضر عيدٌ للقوم.. وخرج الملك الجبّار(نمرود) وأهل المدينة إلى الصحراء، لأداء مراسيم العيد هناك ولم يخرج معهم إبراهيم. فلما ذهبوا، أخذ إبراهيم شيئاً من الطعام، وذهب إلى بيت الأصنام.

(فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون)؟(ما لكم لا تنطقون)؟

فكان يدنو من كل صنم فيقول له: كل.. تكلم. فإذا لم يجبه، أخذ القدّوم، فكسر يده ورجله. ثم علّق القدوم في عنق الصنم الكبير، الذي كان في صدر البيت. وخرج لشأنه..

***

ورجع الملك والقوم من العيد.. ولما دخلوا دار الأصنام، رأوا الأصنام محطّمة. فكثر فيهم اللغو والصياح. من فعل هذا بآلهتهم؟ ومن تجرّأ على مسّ كرامة مقدساتهم. وأخذوا يستفسرون الناس:

(قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنّه لمن الضالمين)؟

(قالوا سمعنا فتى يذكرهم) يذكر الأصنام بسوء(يقال له إبراهيم).

(قالوا فأتوا به على أعين الناس) وإذا بالقوم يطلبون إبراهيم.. هنا..

وهنا حتى وجدوه وجاءوا به إلى مجمع الناس. وهناك نظر القوم إليه في غضب واستنكار،(وقالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم)؟

ورأى إبراهيم الموقع مهيئاً، لنشر الدعوة فأشار إلى كبير الأصنام، الذي كان القدوم في عنقه، وقال: كسّر الأصنام هذا الصنم الكبير إن نطق.. ومعناه: وإن لم ينطق فلم يفعل كبير الأصنام ذلك.

وأراد بهذا الكلام أن يرشدهم إلى أنّ الصنم لا يتكلم فكيف تتخذونه رباً؟ ووقع كلام إبراهيم في قلوبهم: كيف يُعبد صنم لا يكلم؟(فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) وليس إبراهيم ظالماً.. إنه أراد هدايتكم، وأنتم الذين تريدون عناداً وإصراراً.(ثم نكسوا على رؤوسهم) فلم يرفعوها خجلاً. وأخذوا يتمتمون في أنفسهم:(لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فكيف نتخذهم رباً؟

واغتنم إبراهيم هذه الفرصة، فأخذ يعاتبهم على عبادة الأصنام و(قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون)؟!

استشار(نمرود) قومه، في أمر إبراهيم(قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين). فحبس إبراهيم، وأمر بجمع الحطب ـ ولقد كان في قليل من الحطب كفاية لحرق إنسان ـ لكن القوم من كثرة

غضبهم على محطّم آلهتهم. أخذوا يجمعون الحطب من كل مكان، حتى صار الحطب كجبل عظيم.. ثم أشعلوا الحطب ناراً.. فانتشرت حرارتها في الفضاء بحيث لم يكن يحلّق طائر في تلك الأجواء، إلا سقط محترقاً.. ولم يتمكن ذو روح من الدنو.

وحينذاك صعب عليهم الأمر، يا ترى كيف يلقون إبراهيم في تلك النار التي لا يتمكن من اقترابها بشر؟ وإذ هم في حيرة من أمرهم. أشار شخص أن يصنعوا المنجنيق، وهي آلةٌ حربية، تقذف بما يوضع فيها من إنسان أو حجر أو غيرهما. فاستصوبوا رأيه، وأمر الملك الطاغي، بصنع الآلة..

فصنعت ثم وضعوا فيها إبراهيم. وهناك جاء(آزر) عمّه، فلطم إبراهيم، وقال له: ارجع عما أنت عليه.. إشفاقاً على إبراهيم من الحرق.

لكن(إبراهيم) كان أربط جأشاً، من أن يضعضع إيمانه خوف أوتهديد.. فلزم جانب الحق، ولم يرجع، بل أصرّ على مبدئه، وإن حرق بالنار.

* * *

وحينذاك أمر(نمرود) الرّماة، أن يقذفوا إبراهيم في النار! فحركوا عجلة(المنجنيق) فرمت بإبراهيم في الفضاء نحو النار.. وعند إطلاق

إبراهيم، أمر الله تعالى النار:(قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)، فانقلبت النيران بإذن الله تعالى روضةً غناءً، يغلب عليها البرد، فاصطكت أسنان إبراهيم من البرد(وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين).

فنظر نمرود وأصحابه، من بعيد إلى هذه المعجزة متحيرين!! وفلتت من لسان نمرود كلمةٌ، ما أراد أن يقولها.. ولكنها في غمرة التعجب، أخذت مكانها في الفضاء، قال: من اتخّذ إلهاً، فليتخذ مثل إله إبراهيم! لكن أحد المتملقين أراد تدارك الأمر، ليقربه إلى نمرود زلفى.. فقال: إني عزمت على النار أن لا تحرقه. فتطاير شررٌ من النار إلى ذلك المتزلّف.. حتى أبان كذبه: فإن من لا يقدر على أن يرد الشر عن نفسه، كيف يتمكن أن يعزم على النار أن لا تحرق أحداً؟

ونظر نمرود إلى آزر، عم إبراهيم.. وقال: يا آزر، ما أكرم ابنك على ربه؟ ثم خرج إبراهيم من النار، وجاء إلى نمرود، ليدعوه إلى الله من جديد.

* * *

قال نمرود: يا إبراهيم، من ربك؟

(قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت).

(قال أنا أحيي وأميت).

قال إبراهيم: كيف تُحيي وتُميت؟

قال نمرود: اطلب رجلين ممن وجب عليهم القتل، فأطلق واحداً، وأقتل واحداً، فأكون قد أمتّ وأحييت.

وكان هذا الكلام من(نمرود) خطأً، إذ معنى كلام إبراهيم عليه السلام أن الله يعطي الحياة، ويقبض الأرواح. أما كلام نمرود أنه يطلق سراح الجاني، فليس هذا إحياءً..

فقال له إبراهيم: إن كنت صادقاً، فأحْيِ الذي قتلته.. لكن نمرود لم يحر جواباً.

ثم أن إبراهيم أعرض عن مقالة نمرود وأراد أن يلزمه بحجةٍ أخرى.. فقال: دع عن هذا(إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من الغرب).. فإن كلّ يوم صباحاً، تطلع الشمس من المشرق، وذلك من صنع الله تعالى.. فإن كنت أنت إلهاً، فاعكس الأمر، وائتِ بالشمس من طرف المغرب.(فبهت الذي كفر) وانقطع نمرود عن الحجة، فلم يتمكن أن يجيب إبراهيم. وظهر على الكل أن نمرود كاذبٌ في دعواه الألوهية.

* * *

وذات يوم مر إبراهيم على ساحل البحر، فرأى جيفةً على الساحل: بعضها في الماء، وقد اجتمع عليه بعض الأسماك تأكله.. وبعضها في البر، وقد اجتمع عليه بعض السباع تأكله. عند ذاك تفكّر إبراهيم

في كيفية إعادة الأموات، يوم القيامة. فطلب من الله، أن يريه إحياء الأموات، حتى يصير علمه عياناً.

فقال:(رب أرني كيف تحيي الموتى)؟

(قال) الله تعالى:(أو لم تؤمن)؟

(قال) إبراهيم:(بلى) إني مؤمن(ولكن ليطمئن قلبي).

(قال) الله تعالى:(فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم).

فأخذ إبراهيم الديك.. والحمامة.. والطاووس.. والغراب.. فذبحهن، وقطّعهن، وخلطهنّ، ثم جعل على كلّ جبل من الجبال التي حوله ـ وكانت الجبال عشرة ـ جزءاً من تلك الأجزاء المخلوطة، وجعل مناقير هذه الطيور الأربعة بين أصابعه. ثم دعا الطيور بأسمائهن ـ ووضع عنده ماءاً وحبّاً ـ فتطايرت تلك الأجزاء، وانضمّت بعضها إلى بعض، حتى كملت الأبدان وجاء كل بدنٍ حتى لحق برأسه ومنقاره، فخلّى إبراهيم عليه السلام سبيلهنّ، فطرن، ثم وقعن، فشربن من ذلك الماء والتقطن من ذلك الحب، وشكّرن إبراهيم..(١)

---

(١) القصص الحق.

قصة نوح عليه السلام الكاملة

كان - في سالف الزمان - قوم مؤمنون، يعبدون الله وحده ويعتقدون بالمعاد، ويفعلون الخيرات، فمات أولئك القوم، فحزن عليهم الناس لصلاحهم وأخلاقهم. فعمل بعض تماثيل أولئك، وكانوا يسمّون بهذه الأسماء: ودّ، سواع، يغوث، يعوق، نسر..

وأنس الناس بهذه التماثيل، وجعلوها رمزاً لأولئك النفر الصلحاء الذين ماتوا منهم. وكان أهل المدينة يعظّمون هذه الصّور، قصداً إلى تعظيم أولئك الأموات.

مضى الصيف، وجاء الشتاء، فأدخلوا الصّور في بيوتهم. ومضى زمان.. وزمان.. حتى مات الآباء وكبر الأبناء، فجعلوا يضيفون في احترام هذه التماثيل، ويخضعون أمامها. وأخذت التماثيل من نفوس أولئك القوم مأخذاً عظيماً. وإذا بالجيل الثاني، شرعوا يعبدون الصور.. ويقولون إنها آلهةٌ، يجب السجود لها، والخضوع أمامها. فعبدوها، وضلّ منهم خلق كثير.

* * *

وحينذاك، بعث الله إلى أولئك القوم نوحاً عليه السلام ليرشدهم إلى الطريق.. وينهاهم عن عبادة الأصنام.. ويهديم إلى عبادة الله تعالى.

فجاء نوح إلى القوم..(فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره) فكذّبوه، ولم يقبلوا منه، فأنذرهم من عذاب الله تعالى.

قال:(إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم).

(قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين).

(قال يا قوم ليس بي ضلالةٌ ولكني رسول من ربّ العالمين أبلّغكم رسالات ربّي وانصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون). فتعجّب القوم من مقالة نوح.. وجعلوا يقولون: أنت بشر مثلنا، فكيف تكون رسولاً من عند الله؟ وإن الذين اتبعوك هم جماعة من الأراذل والسفلة.. ثمّ لا فضل لكم علينا، فلستم أكثر منّا مالاً أو جاهاً.. وإنا نظنّ إنكم كاذبون في هذه الادعاءات.. وقال بعض القوم لبعض:(ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم إن هو إلا رجل به جنّة)

وشجّع بعض القوم بعضاً، في عبادة أصنامهم(وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودّا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً).

ولما طال حوارهم وجدالهم، قال نوح:(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم)؟ وأخذ نوح عليه السلام جانب اللين

واللَطف، ولكن القوم لم يزيدوا إلا عناداً.

ولكن نوحاًعليه السلام لم ييأس منهم، بل كان يأتيهم كل صباح ومساء، ويدعوهم وينذرهم بلطف ولين.. وكان القوم إذا جاءهم نوح للدعوة(جعلوا أصابعهم في آذانهم) حتى لا يسمعوا كلامه(واستغشوا ثيابهم) تغطّوا بها حتى لا يروه. وكثيراً ما هاجموه، وضربوه حتى يغشى عليه! لكنّ نوحاً النبي العظيم العطوف الحليم، كان إذا أفاق يقول: اللهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون.

وفي مرات أنهكوه ضرباً وصفعاً، حتى جرت الدماء عن مسامعه الكريمة، وهو مع ذلك كلّه كان يلطف بهم، ويدعوهم إلى الله تعالى، فكانوا يقولون: لم(يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا)؟

حتى علم أنه لا يفيدهم النصح، فتوجّه إلى الله تعالى، ضارعاً، وبيّن كيفيّة ردّهم إياه(قال ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً)،(وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً).

(ثم إني دعوتهم جهاراً)،(ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً)،(يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهاراً).

واختلق بعض أولئك الكفّار عذراً تافها.. فقالوا:(أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون)؟ فإن أردت هدايتنا، وإعزازنا لك، فاطرد هؤلاء الأرذلين الذين آمنوا بك عن حوزتك.. فإنّا لا نستطيع أن نقرن بهؤلاء فكيف نستجيب لدين يستوي فيه الشريف والوضيع، والكبير والصغير؟

فأجابهم نوح عليه السلام، بلهجة كلّها حنان وتذكير:(قال وما علمي بما كانوا يعملون)؟(إن حسابهم إلا على ربّي لوتشعرون)،(وما أنا بطارد المؤمنين)!(وما أنا بطارد الذين آمنوا) وكيف أطرد جماعة آمنوا بي، وآزروني وساعدوني على نشر الدعوة؟(ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكّرون)؟(إن أنا إلا نذير مبين) أنذر الناس على حدّ سواء، من غير فرق بين الشريف والوضيع، والغنيّ والفقير، والكبير والصغير.

ولما انقطع القوم عن الاحتجاج.. ولم يتمكّنوا من رد الأدلة التي ذكرها نوح عليه السلام، أخذوا يهدّدونه، بالرجم بالحجارة(قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين).

وقد علم نوح عليه السلام أنهم لا يقبلون منطقاً، ولا يهتدون، فضرع إلى الله تعالى، في أن ينجّيه من هؤلاء المعاندين(قال ربّ إن قومي كذّبون)،(فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجّني ومن معي من المؤمنين).

وحيث كان نوح يخوّف قومه من عذاب الله، إن أصرّوا على

الكفر.. قال بعضهم، استهزاءً: إلى متى تهدّدنا بعذاب الله؟(فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين).

فأجابهم نوح: إن هذا الأمر ليس بيدي.. و(إنما يأتيكم به الله إن شاء).

ثم توجه إليهم في تحسّر، وقال:(لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم..).

وعند ذاك توقّع النّصر من الله تعالى.. وانتظر الوحي ليعلم أنّه ما ينبغي أن يصنع بهؤلاء القوم؟ فأوحى إليه الله تعالى:(إنّه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون).

وإذ تمّت الحجة.. وانقطعت الأعذار، وطالت الدعوة ما يقرب من عشرة قرون، يئس نوح منهم يأساً باتّاً، وأشفق على أولادهم وأحفادهم أن يأخذوا طريقة الآباء في الكفر والإلحاد. فدعا إلى الله تعالى، قائلاً:(ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً).

وحينئذ أمره الله تعالى أن يغرس النخل فإذا أثمر نزل عليهم العذاب. وقد كان من مقتضى عدل الله تعالى أن لا يعذّب طفلاً صغيراً بذنوب الآباء.. فعقّم أرحام النساء أربعين سنة، فلم يولد لهم

مولود ولم يبق لهم طفل غير مكلّف.

وفي تلك المدّة شرع نوح في غرس النخل، فكان القوم يمرّون به ويسخرون منه، ويستهزئون به، قائلين: انّه شيخٌ قد أتى عليه تسعمائة سنة، وبعد يغرس النخل! وكانوا يرمونه بالحجارة..

ولما بلغ النخل، وانقضت خمسون سنة، أمر نوحٌ بقطعه.. فقالوا: إن هذا الشيخ قد خرف.. وبلغ منه الكبر مبلغه! مرّة يقول: أنا رسول.. ومرّة يغرس النخل.. ومرّة يأمر بقطعه؟

ولمّا اكتمل الأمر وصارت المدّة ألف سنة إلا خمسين عاما، أوحى الله إليه بصنع السفينة(فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا). فأخذ نوح عليه السلام يصنع الفلك، وجبرئيل يعلّمه كيف يصنعها.. وإذ كان من الواجب صنع سفينة تسع ملايين المخلوقات، أوحى الله إليه: أن يكون طول السفينة ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ثمانمائة ذراع، وارتفاعها ثمانين ذراعاً، فيكون الحجم سبعة ملايين، وستمائة وثمانين ألف ذراع.

لكنّ نوحاً عليه السلام سأل الله تعالى أن يعينه على صنع مثل هذه السفينة الكبيرة، قال: يا ربّ من يعينني على اتخاذها؟ فأوحى الله إليه: ناد في قومك، من أعانني عليها، ونجر منها شيئاً صار ما ينجره ذهباً وفضة.

فأعانوه في صُنعها. وكان محلّ صنع السفينة صحراء وسيعة(ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملا من قومه سخروا منه)!

فكان بعضهم يقول: أيها النبي، لم عدلت عن رسالتك إلى النّجارة؟

وبعضهم كان يقول: يا نوح صرت نجّاراً بعد النبوّة؟!

وبعضهم كان يقول: السفينة تصنع للبحر وأنت تصنعها في البر؟!

وكانوا يتضاحكون! ويتعجبون! ويرمون نوحاً بالجنون والسّفه.

ويجيبهم نوح عليه السلام في تأدّب ولين:(إن تسخَروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلّ عليه عذابٌ مقيم). واشتغل بالعمل جادّاً، حتى تمّ صنع السفينة.

ثم أمر الله سبحانه نوحاً أن يحمل في السفينة الذي آمنوا معه.. ومِن كل ذي روح زوجين اثنين، لئلا ينقرض نسل الحيوان.. وقد كان نوح هيّأ لكلّ صنف من أصناف الحيوان، موضعاً في السفينة، ثم حمل من جميع الأصناف التي تغرق في الماء، ولا يتمكّن أن يعيش فيه.

فحمل من الضأن اثنين ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الغزال اثنين، ومن اليحمور اثنين، ومن البغل اثنين،

ومن الفرس اثنين، ومن الأسد اثنين، ومن النمر اثنين، ومن الفيل اثنين، ومن الكلب اثنين، ومن الدّب اثنين.. وهكذا..

وحمل من الحمام اثنين، ومن العصفور اثنين، ومن الصعوة اثنين، ومن الغراب اثنين، ومن الكركي اثنين، ومن البلبل اثنين، ومن الببغاء اثنين، ومن النّسر اثنين ومن الهدهد اثنين، ومن الفاختة اثنين، ومن الطاووس اثنين.. وهكذا..

وحمل من الجعلان اثنين، ومن اليراعة اثنين، ومن اليربوع اثنين، ومن السنور اثنين، ومن الخنافس اثنين.. وهكذا..

وبالجملة فقد صنع في السفينة أكبر حديقة حيوانية شاهدها العلم. وجمع في السفينة لكل حيوان من طعامه الخاصّ مبلغاً كثيراً. هكذا شاء الله.. ونفّذ مشيئته نوح عليه السلام.

وحمل الذين آمنوا به، وكان عددهم ثمانين شخصاً..(وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها إن ربّي لغفور رحيم).

وكان لنوح عليه السلام زوجتان، إحداهما مؤمنة، والثانية كافرة.. وكانت الزوجة الكافرة تؤذي نوحاً، وتقول للناس: إن زوجي مجنون وإذا آمن أحد، أخبرت الكفّار.

وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى هذه الزوجة، حيث يقول:(ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من

عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين).

ولما ركب نوح عليه السلام السفينة، اركب معه الزوجة المؤمنة، وترك الكافرة، فغرقت مع سائر الكفار.

ولما ركب نوح والّذين آمنوا معه السفينة، وأركب جميع الحيوانات، كلاً في موضعه.. كسفت الشمس، وأخذت السماء تمطر مطراً غزيراً، وطفقت عيون الأرض تنبع بالمياه الكثيرة(ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) منصب انصباباً شديداً لا ينقطع(وفجّرنا الأرض عيوناً) حتى جرت المياه على وجه الأرض(فالتقى الماء) ماء الأرض وماء السماء، حتى صار العالم كبحر كبير.

واستمرّ هطول الأمطار ونبع العيون أربعين يوماً. وفي تلك الأثناء، كانت السفينة تجري فوق ظهر الماء حسب هبوب الرياح، وإذا بنوح عليه السلام يشرف من السفينة فيرى ولده، يقع مرّة، ويقوم أخرى، يريد الفرار من الغرق، فناداه:(يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين). لكن الابن العاق أبى قبول نصيحة والده الشفيق، وأجاب نوحاً(قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء).

فنظر إليه نوح نظر مشفقٍ، وقال:(لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من

رحم). ولكنّ عناد الولد، وإصراره على الكفر حال بينه وبين قبول نصح أبيه، فلم يركب السفينة، وكانت السفينة حينذاك(تجري في موج كالجبال).

وبعد برهة من هذه المحاورة(حال بينهما) بين نوح وولده(الموج فكان من المغرقين). وأخذت نوح عليه السلام الرقة على ولده، فتضرّع إلى الله تعالى في نجاة ابنه الغريق، فإن الله تعالى كان قد وعده بنجاة أهله، فقال نوح عليه السلام:(ربّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين).

ولكنّ الله تعالى، كان قد وعد نجاة أهل نوح الذين كانوا من الصالحين، ولذا أجابه:(يا نوح إنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح).

بعدما غمر الماء جميع الأرض، وهلك كل كافر(قيل يا أرض ابلعي ماءك)! فغاض الماء الذي نبع من الأرض، وأوحى إلى السماء:(يا سماء اقلعي) وكُفي عن الانصباب والمطر، فانقطع المطر(واستوت) السفينة(على الجودي) وهو جبل، أرست السفينة عليه، وأخذت المياه التي بقيت على الأرض من الأمطار، تتسرّب إلى البحار.

وأوحى إلى نوح عليه السلام:(يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك

وعلى أممٍ ممن معك) فنزل نوح من السفينة، ونزل المؤمنون الذين كانوا معه، وبنوا مدينةً، وغرسوا الأشجار، وأطلقوا الحيوانات التي كانت معهم.

وابتدأت العمارة في الأرض، وأخذ الناس يتوالدون ويتناسلون، وأوحى الله تعالى إلى نوح: يا نوح، إنني خلقت خلقي لعبادتي، وأمرتهم بطاعتي، فقد عصوني، وعبدوا غيري واستوجبوا بذلك غضبي، فغرّقتهم(١).

قصة موسى عليه السلام الكاملة الميسرة

كان يوسف عليه السلام ملكاً في مصر، وقد جمع بين النبوّة، والملوكية، فكان ينظّم أمر الناس على وفق العدل والحكمة.

وحين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب، وهم ثمانون رجلاً.. فقال لهم: إنّ هؤلاء القبط سيظهرون عليكم ويكون الملك للكافرين ويصبح المؤمن في هذه البلاد ذليلاً بأيديهم.. ويسومونكم سوء العذاب. وإنما ينجّيكم الله من أيديهم، برجل من ولد(لاوي) بن(يعقوب) اسمه: موسى بن عمران.

(١) القصص الحق.

وبعدما أخبر يوسف بني إسرائيل بهذا الخبر، حزنوا لما يتوقعونه من البلاء، وفرحوا بما ينتظرونه من الفرج على يد نبيّ من بني أبيهم.. ومات يوسف عليه السلام.

فملك بعده رجلاً لا يسير سيرة يوسف في كل كبير وصغير.. وكيف يعدل بيوسف غيره: وهو نبيّ من عند الله تعالى لا يأمر إلا بالخير، ولا يفعل إلا الخير. ثم مات الملك..

وملك بعده رجل آخر، وكان عاتياً فاجراً.. وهكذا أقام بنو إسرائيل، بعد وفاة يوسف، وقد كثروا، وانتشروا، متمسّكين بدين آبائهم يوسف، ويعقوب، وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام.

حتى زمان الملك فرعون.. وهذا الملك الطاغي فتح لمصر صفحة جديدة من الطغيان والإرهاب، وخصّص لبني إسرائيل ألواناً من العذاب والنكال.

كان بنو إسرائيل ينتظرون مقدم موسى عليه السلام لينجّيهم من طغيان فرعون وقسوته. وكان كلّما ولد لأحدهم مولود سموه عمراناً.. فإذا كبر عمران، سمّى ولده موسى رجاءً لأن يكون هو الذي وعد به يوسف عليه السلام حين حضرته الوفاة ولكن خابت الظنون، فلم يكن موسى الموعود أحدهم.

واغتنم بعض متطلبي الرئاسة هذا الوعد، فجعل من نفسه موسى النبيّ! حتى ادّعى خمسون من بني إسرائيل انهم هم الذين وعدهم يوسف، وكلّهم يدّعي أنه ينزل عليه الوحي، وانه هو مخلص بني

إسرائيل، كذباً وافتراءً!

ولم يزل فرعون يسمع هذه الأخبار عن بني إسرائيل وكان قد علم أن بني إسرائيل يرجفون به ويطلبون هذا الغلام. فاستشار كهنته وسحرته في هذا الأمر المهم.

قالوا: إن المسموع صحيح، وهلاك دينك وقومك على يدي هذا الغلام.

وحدّدوا وقت ولادة الغلام بعامٍ مخصوص. وهنا ثار ثائر فرعون، وجعل يخبط خبط العشواء للظفر بهذا الذي سيولد، مما يكون بيده هلاكه وتقضي أيامه!! أما كيف يصنع؟ وكيف يظفر على هذا المولود فهو سر مغلق، لا تساعده حيلته على ذلك!!

وأخيراً ارتأى أبشع الآراء، وقرّر تنفيذه بكل صرامةٍ وقسوةٍ. جعل القوابل على النساء، في ذلك العام الذي أخبر بولادة موسى فيه وأمر بأن يذبح كل غلام يولد في ذلك العام، ليستريح من موسى من أوّل أمره.

وعجّ بنو إسرائيل من هذا الحكم الإجراميّ واجتمع بعضهم إلى بعض لحلّ المشكلة. وكان فيهم عمران والد النبي موسى عليه السلام.

فقال بعضهم: إذا ذبح الغلمان واستحيي النساء هلكنا ولم يبق لنا

نسبٌ، فمن الرأي أن لا ينكح رجالنا نساءنا حتى لا يولد لنا مولود.. وبذلك ننقرض جميعاً، أما أن تبقى البنات ويذبح الأولاد فمعنى ذلك: أن نقدّم بناتنا إلى آل فرعون غنيمة باردة. لكنّ عمران أبى هذا الرأي.. وقال: أمر الله واقعٌ ولو كره المشركون.

وقد أصرّ فرعون في تعذيب بني إسرائيل، وقتل أطفالهم، حتى قتل من أطفال بني إسرائيل نيفاً وعشرين ألف مولود. بالإضافة إلى ما كان يأمر به من تعذيب الرجال والنساء. وقد كان من صنوف تعذيبه أن أمر بتقييد أرجلهم لئلا يفرّوا.. ثم كان يستعملهم في البناء، فكانوا ينقلون الطين على السلالم إلى السطوح، بأرجل مقيدة.. وكثيراً ما كانوا يقعون من السلّم فيموتون أو يزمنون، أو يصابون بصنوف الرض والكسر والتشويه.

وفي مثل هذا الوقت.. وفي هذا الجوّ الخانق تعذيباً وإرهاباً.. حملت أمّ موسى.. فوكل بها فرعون قابلةً ترقّب ولادتها، فإن كان الولد ذكراً ذبحه وإن كانت أُنثى استحياها.. وألحت القابلة في حراستها، فإذا قامت الأم قامت القابلة في إثرها، وإذا جلست جلست القابلة إزاءها لئلا يفوتها زمنٌ من حالها.

لكنّ الله تعالى شاء أن تنقلب القابلة عن هذه الصرامة، فأحبّت أمّ موسى حباً كبيراً، لما رأت فيها من الأخلاق الفاضلة والأدب الرفيع.

أما الأمّ فقد أخذها الخوف، وظهر على ملامحها فشحب وجهها ومال إلى الاصفرار.

قالت القابلة يوماً لأمّ موسى: يا بنية، ما لك تصفرّين وتذوين؟

فأجابت الأمّ قائلة: لا تلوميني، كيف لا أخاف انّه إذا ولدت أخذ الولد وذبح!

لكن القابلة سلّتها، وقالت: لا تحزني، فإني سوف اكتم عليك.

أما الأم فقد ظلّت في شك من هذا الوعد، إلى أن ولدت بموسى عليه السلام، وكانت القابلة حاضرة حين الولادة، فالتفتت إليها أمّ موسى، وملء نظرها استعطاف واستيفاء للوعد.. وفوّضت أمرها إلى الله قائلةً: ما شاء الله، وانتظرت أمر القابلة.

ولما أن سمع الناس ولولة الطلق، ذهبوا يخبرون الحرس الملكي، الذين وكّلوا بذبح الأطفال، فحضروا باب البيت، وتحيّرت القابلة في الأمر، ماذا تجيب الحرس؟ وكيف تنقض عهداً عهدته إلى الأمّ المحببة إليها؟

لكنها أخيراً، توجّهت إلى الأمّ قائلة: إني سوف اكتم عليك، كما وعدتك فلا تخافي، وحملت الأم والولد فأدخلتها المخدع، وأصلحت بعض أمرها، ثم خرجت إلى الحرس قائلة: انصرفوا، فانّه

خرج دم منقطع. فانصرف الحرس، واطمأنت الأمّ، وجزت القابلة خيراً.

وهكذا شاء الله تعالى أن يخلّص نبيّه العظيم موسى عليه السلام من براثن فرعون المجرم، وحرسه القساة(وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه) فأرضعت الأمّ ولدها الحبيب، بكلّ لهفةٍ وحنان. لكنّها خافت أن يبكي موسى، فيعرف الجيران خبرها، فتقع فيما فرّت منه.

فألهمها الله تعالى أن(..إذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني..) فصنعت أمّ موسى تابوتاً من خشب، ووضعت ابنها الحبيب فيه، وطبقت التابوت بحيث لا يدخل فيه الماء، وذهبت ليلاً إلى الماء. ثم طرحت التابوت في النيل، وقلبها ممتلئ كآبةً وحزناً.

لكن الماء أبى أن يفرّق بين الوالدة الحزينة والولد الحبيب، فجعلت الأمواج تدفع التابوت إلى الجرف.. والوالدة تدفع التابوت إلى الغمر، خوفاً وحزناً! إلى أن ضربت الريح التابوت نحو مجرى الماء، فانطلق به.

لكن الأم كيف تصبر؟ فهمّت أن تصيح لوعةً وشجناً، فربط الله على قلبها، وحفظها(وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها). ووعد الله الأم أن يرد الولد إليها، وبشّرها

بأن يجعله من المرسلين(إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين).

التابوت ينطلق في الماء، حسب لهب الريح ومجرى الماء.. والولد يكلأه الله بلطفه ورعايته في جوف الصندوق.. والأم أخذت ترجع إلى البيت بقلبٍ والهٍ وأن لمس شيئاً من الهدوء والاطمئنان تصديقاً بوعد الله.



فما هي العاقبة؟

كانت لفرعون امرأةً صالحة تسمى(آسية) من قبيلة بني إسرائيل، وكانت تخالف زوجها في العقيدة والرأي، لكنّها كانت تسرّ معتقدها، خوفاً من سطوة فرعون الجبار الطاغي.

وأتت أيام الربيع فقالت آسية لفرعون: هذه أيام الربيع فأمر لي بضرب قبّة على النيل لكي أتنزّه في هذه الأيام الجميلة. فأمر فرعون بضرب قبةٍ لها على الشطّ، وخرجت هي مع لمّةٍ من جواريها.

وبينما الجواري على الماء.. إذ رأين الأمواج تعلو وتهبط بشيء، ورأت آسية الصندوق في وسط الغمر، فقالت للجواري: ما ترين؟ قلن: يا سيدتنا، إنا لنرى شيئاً كما ترين.. وأتى الماء بالصندوق إلى القرب منهن، فاندفعن في الماء حتى أخذنه، وقد كاد أن ينفلت من أيديهن.

فتحت آسية الصندوق، وإذا فيه طفل جميل كفلقة القمر، فأوقع الله في قلبها محبة منه(ألقيت عليك محبة مني) ووضعت الولد في حجرها، وتفكّرت في أن تتخذه ابناً لها.. فأعلمت الجواري، وقالت: هذا ابني.. وأقرّتها الجواري بهذا التبنّي الميمون.

فقلن: أي والله، أي سيّدتنا، ما لك ولدٌ ولا للملك ـ يقصدن فرعون ـ فاتّخذيه ولداً.

ولكن.. يا ترى، هل يرضى فرعون بذلك؟

قامت آسية إلى فرعون.. فقالت له: إني أصبت غلاماً طيّباً حلواً، نتّخذه ولداً، فيكون قرّة عين لي ولك، فلا تقتله.

قال فرعون: ومن أين هذا الغلام؟

قالت آسية: لا والله ما أدري، إلا أن الماء جاء به..

لكن فرعون أبى أن يقبل قولها.. وهمّ أن يقتله، لما توجس خيفة، من أن يكون الولد من بني إسرائيل.. فألحّت آسية في الإصرار، وشفعت شمائل الولد الحلوة، في قبول فرعون تبنّي الولد.. وسمّاه(موسى) لأنه التقط من الماء.

ولما سمع الناس أن الملك قد تبنّى ابناً.. أرسل كبراء الناس نساءهم إلى آسية لتكون لموسى عليه السلام ظئراً ومربية.. وكلما تقدّمت النساء إلى موسى، لتلقمه ثديها، أعرض عن الثدي، فتحيّرت آسية في أمره.. ماذا تصنع به؟

ثم أمرت جواريها أن يطلبن كلّ امرأة مرضعة أو ذات لبن، ولا يحقرن أحداً كيف ما كان شأنها ومنزلتها فلعل موسى يقبل إحداهن..

أما أم موسى فقد كانت تترقب الأخبار عن ولدها. إذ أنها لم تعلم ما صنع به في النيل! لكنّها لم تظفر بخبر صحيح عن ولدها..

فقالت لابنتها - أخت موسى - قصيه وانظري أترين لأخيك من أثر.. فانطلقت البنت تفحص عن موسى الرضيع هنا وهناك، لكنّها لم تقع على خبر؟!

وانتهى بها السير إلى باب دار الملك(فرعون) ودخلت الدار فيمن دخل.. وإذا بها ترى موسى أخاها في حضن آسية.. وقد التمست النساء لإرضاعه، لكنّه يأبى عن قبول لبنهن، وذلك بمشيئة من الله تعالى(وحرّمنا عليه المراضع من قبل).

توجّهت البنت الزكيّة إلى امرأة فرعون قائلة: قد بلغني أنكم تطلبون ظئراً.. وهنا امرأة صالحة تأخذ ولدكم، وتكفله لكم.

قالت بعض النساء: يظهر أن هذه البنت تعرف أم الغلام وإلا فمن أين لها بالظئر!

أجابت البنت الفطنة: أردت نصحكم.. فإني اعرف امرأة مرضعة، وإن لم تحبوا أن آتي بها فلا ضير.

لكن آسية أمرت بأن تأتي بالمرضعة، فلعل موسى يقبل ثديها. فركضت البنت إلى أمّها تبشرها بالخبر.. وتبعتها الأمّ إلى دار فرعون. فلمّا دخلت الدار..

قالت آسية: ممن أنت؟

قالت الأم: من بني إسرائيل.

قالت آسية: اذهبي يا بنيّة، فليس لنا فيك حاجة.

توجهت النساء إلى آسية قائلات: انظري يا آسية هل يقبل الطفل الثدي أو لا يقبل؟

فقالت امرأة فرعون: أرأيتم لو قبل.. هل يرضى فرعون أن يكون الغلام من بني إسرائيل والمرأة - تعني الظئر - من بني إسرائيل؟ إن فرعون لا يرضى بذلك أبداً.

قالت النساء: فانظري يقبل أو لا يقبل؟

وقد كانت أمّ موسى خرجت من عند آسية عندما قالت لها اذهبي يا بنيّة.. فأرسلت آسية - بعض الجواري - عليها لترجع. فركضت أخت موسى، إلى أمّها تخبرها بالبشارة قائلة: إن امرأة الملك تدعوك.. فأتت الأم فرحة، ودخلت على آسية.

فدفعت آسية الولد إليها، والنسوة ينظرن، أخذت الأمّ ولدها، ووضعته في حجرها، ثم ألقمته ثديها، وإذا بموسى يقبل على المصّ إقبالاً عظيماً واللّبن يجري في فمه. فرحت آسية.. وفرحت النسوة.. وفرحت الأمّ فرحاً كبيراً. قامت آسية إلى فرعون، تخبره الخبر،

وتستأذنه في أمر الظئر الإسرائيلية.

فقالت: إنّي قد أصبت لابني ظئراً، وقد قبل منها الرضاع.

قال فرعون: وممن هي؟

قالت آسية: من بني إسرائيل!

قال فرعون: هذا مما لا يكون أبداً: الغلام من بني إسرائيل! والظئر من بني إسرائيل!

فلم تزل آسية تلحّ عليه، وتستعطفه في أمر الغلام وتقول له: وماذا تخاف؟ إنّ الغلام ابنك وينشأ في حجرك.. فهل تراه يبارزك ويخاصمك؟ هذا مما لا يكون.

حتى قبل فرعون، ورضي بالظئر الإسرائيلي(فرددناه إلى أمّه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون).

فنشأ موسى في حضن فرعون وداره، في عز واحترام، بينما كان فرعون وجلاوزته يقتلون أولاد بني إسرائيل، خوفاً من أن ينشأ فيهم من أخبر المنجّمون بأنّ زوال ملك فرعون بيده.

وهكذا شاء الله أن يربي نبيه العظيم، في حضن أعدى أعدائه(فالتقطته آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً).

وقد كتمت القابلة.. والأمّ.. والأخت.. خبر موسى، ومضى زمانٌ، وأتى زمانٌ، واستغنى موسى عن الرضاع، وماتت الأم، وماتت القابلة، وبقي موسى في حجر فرعون، يكلأه الله برعايته ويربيه فرعون ينظر إليه نظر الأب إلى ابنه.

وفي ذات يوم حدث أن موسى وهو غلام صغير يدرج ـ عطس عطسةً فقال: الحمد لله رب العالمين.

فأنكر فرعون ذلك عليه، ولطمه موسى على وجهه وقال: ما الذي تقول؟ فوثب على لحية فرعون ـ وكانت طويلة ـ فقلع بعضها! فهمّ فرعون بقتله!

قالت آسية ـ متشفعةً ـ إنه غلام حدث ما يدري ما يقول..

فقال فرعون: بلى يدري. قالت آسية: فامتحنه: ضع بين يديه تمراً وجمراً، فإن ميّز بينهما، فافعل ما تريد.

فأمر فرعون بأن يوضع إزاء موسى طبقاً من تمر وكانوناً من جمر.. فمدّ موسى يده إلى الجمر، ووضعه في فمه.. فاحترق لسانه ويده، وبكى بكاءً مراً!

فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك: إنه لا يعقل. فعفا فرعون عنه..

أمّا بنو إسرائيل، الذين كانوا تحت اضطهاد فرعون ونكاله، فقد

كانوا منتظرين مقدم موسى، ولكنّهم لم يكونوا يعلمون أنّه قد ولد.. فكانوا يتذاكرون وعد يوسفعليه السلام، وينتظرون نبيّهم المخلّص لهم من أيدي الجبارين.. وكانوا يسأل بعضهم بعضاً عن وقت الفرج، لكن.. لم يكونوا يعرفون ذلك بالضبط.

ولما علم فرعون بإلحاحهم في طلب مخلّصهم زاد في تعذيبهم، وأمر بأن يفرّق بين رجالهم ونسائهم، كي لا يولد لهم المولود المنتظر. ومنع عن مذاكرة موسى منعاً باتاً، ولم يدر أن موسى في بيته!

وقد أثّر الضغط الشديد في بني إسرائيل، فلم يقدروا على ذكر اسم موسى إلا في ظلمات الليل، والخفايا، كي لا يرفع أمرهم إلى الطاغية فرعون. فخرجوا ذات ليلة مقمرة إلى كبير لهم، له علم ومعرفة، يسألونه عن موعد الفرج؟

قالوا للشيخ: قد كنّا نستريح إلى أخبارك من قبل، وكانت بشائرك بالفرج تسري عنّا بعض الهموم. فإلى متى نحن في هذا البلاء؟ إن فرعون يقتل رجالنا، ويشق بطون نسائنا الحبالى، ويذبح أطفالنا. فمتى الفرج؟

قال الشيخ: إنكم لا تزالون في البلاء حتى يجيء الله تعالى بغلام من ولد لاوي بن يعقوب.. اسمه موسى بن عمران، غلامٌ طوالٌ جعدٌ.

وعند ذلك يكون الفرج.

وبينما هم في الحديث، بين يأس ورجاء، إذ طلع عليهم موسى من بعيد.. وهو إذ ذاك حديث السن، وقد خرج من دار فرعون، وهم يزعمون أنه يريد النزهة. لكن موسى كان قاصداً نحو بني إسرائيل، ميمّماً وجهه شطر ذلك الاجتماع المنعقد في ظلمة الليل، وقف على القوم، فتوسّم الشيخ فيه الملامح الموعودة.

فقال: ما اسمك يرحمك الله؟

قال: موسى..

قال الشيخ: ابن من؟

قال: ابن عمران.. فانكبّ الشيخ على قدميه يقبّلهما.

وعرف بنو إسرائيل نبيّهم، فأقبلوا إليه يقبّلون يده ورجله، في فرح وغبطة ثم ودّعهم موسى قائلاً لهم: أرجو أن يعجّل الله فرجكم! وذهب إلى دار فرعون. وفي هذا الوقت علم بنو إسرائيل أن الفرج قد اقترب.. وانّه قد شبّ مخلّصهم من فرعون.

خرج موسى ذات يوم يتفرّج.. فدخل مدينة لفرعون، وبينما هو يسير، فإذا به يرى رجلين يقتتلان(هذا من شيعته) من بني إسرائيل(وهذا من عدوه) من القبط، فكان أحدهما يقول بقول موسى،

وكان الآخر يقول بقول فرعون(فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) قال الإسرائيلي: يا موسى نجني من هذا القبطي. فتقدم موسى إلى القبطي(فوكزه) ضربه بيده، وكانت الوكزة شديدة، لما كان لـ(موسى) من قوة وبطش(فقضى عليه) ومات القبطي في مكانه. قال موسى: هذا الاقتتال من عمل الشيطان.

فانتشر أمر موسى في الناس، وقالوا: إنه قتل رجلاً من القبط(فأصبح في المدينة خائفاً يترقب). وخرج في غد ذلك اليوم يتحسّس الأخبار، فإذا به يمرّ بذلك الرجل الإسرائيلي، وهو يتقاتل مع رجل قبطي آخر.. ولما أن رأى الإسرائيلي موسى استصرخه وطلب منه العون في إنجائه من القبطي. توجه موسى إلى الإسرائيلي، وقال له:(إنك لغوي مبين) كل يوم تقاتل رجلاً؟!

لكن موسى ـ بعدما قال هذا الكلام للإسرائيلي ـ نحى نحو القبطي ليزجره وينصر الإسرائيلي(ولما أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما) زعم الإسرائيلي أن موسى يريد الانتقام منه.. فاضطرب وتوجه إلى موسى قائلاً:(أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين)؟! فخاف موسى أن يتبيّن أمره، ويلقى القبض عليه فهرب من محل المنازعة، واختفى.

كان خازن فرعون مؤمناً بموسى عليه السلام وكان قد كتم إيمانه عن فرعون.. وبعد الواقعة استشار فرعون أصحابه في أمر موسى؟ وأخيراً استقرّ رأيه على أن يقتله. لكن الله شاء أن يحفظ موسى من القتل.

فأخذ الخازن يناقش فرعون في قتل موسى وقال:(أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)؟ لكن لم تنفع المناقشة، وصدر حكم القتل، فلم ير الخازن حلاً للمسألة إلا أن يخبر موسى بالمؤامرة لينجو بنفسه.

(وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين) وسمع موسى كلام الخازن(فخرج منها خائفاً يترقّب) بغير دابّةٍ، ولا خادم ولا زادٍ متضرعاً إلى الله تعالى، قائلاً:(رب نجني من القوم الظالمين) وكان يخاف أن يلحقه الطلب!

لكن الله حفظ نبيه عن أذى فرعون وقومه، فلم يظفروا به، حتى خرج من بلادهم.. وورد إلى بلاد آخرين(ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل).

سار موسى عليه السلام.. ترفعه أرض وتخفضه أخرى، حتى أتى إلى ارض مدين، فرفعت له من البعيد شجرةٌ، فقصدها ليستظلّ بها، ولما اقترب منها رأى تحتها بئراً(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أُمّةً من

الناس يسقون). ونظر في ناحية، فإذا يرى جاريتين معهما غنمٌ تنتظران صدور القوم، حتى تسقيا غنمهما، من فضل ما بقي في الحوض.

فقال لهما موسى:(ما خطبكما)؟ ولماذا تنتظران؟(قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخٌ كبير). فرقّ موسى لحالهما، ودنا من البئر، وقال لمن على البئر: أستقي دلوين دلواً لكم، ودلواً لي؟ وكان الدلو كبيراً يحتاج مدُّه إلى جماعة... فقبل القوم كلامه لما رأوا فيه من المنفعة لأنفسهم، فتقدّم موسى عليه السلام وحده ـ وكان قويا ـ فاستقى وحده دلواً لمن على البئر ثم استقى دلواً آخر للجاريتين، وسقى أغنامهما.

(ثم تولّى إلى الظلّ فقال ربّ إني لما أنزلت إليّ من خيرٍ فقيرٌ) وكان عليه السلام حينذاك جائعاً لم يأكل منذ ثلاثة أيام شيئاً وكان قد استولى عليه الضعف، والتعب.. فقد قطع الطريق بين مصر ومدين راجلاً خائفاً، ولم يعتد ذلك من قبل حيث انه كان في ظلّ نعيم في بيت الملك، مهيئاً له أفضل الأطعمة، وأحسن المراكب، وأسبغ الرفاه والأمن.

فتضرّع إلى الله تعالى، في أن يمنحه الراحة والأمن والمأكل. استجاب الله دعاء موسى عليه السلام. فما أن رجعت المرأتان إلى داريهما ـ وكان أبوهما نبياً من أنبياء الله تعالى، واسمه: شعيب عليه السلام ـ حتى

أخبرتاه بنبأ موسى.

إن شعيب سأل ابنتيه، قائلاً: أسرعتما الرجوع اليوم؟ وقد كانتا اعتادتا التأخر حتى يصدر الرعاء.

فقالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحيماً، فسقى لنا مع القوم، وهذا سبب مجيئنا قبل كل يوم.

فقال شعيب، لواحدة منهما: اذهبي إليه، فادعيه لنجزيه أجر ما سقى لنا(فجاءته إحداهما تمشي على استحياء) حتى وصلت إلى موسى(قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) فقام موسى معها، وأرادت الفتاة أن تتقدّم على موسى في المشي لتدلّه على الطريق لكن موسى أبى، وقال: بل كوني من ورائي، وأرشديني إلى الطريق بدلالة.

حتى وصل إلى دار شعيب فدخل الدار، ورحّب به شعيب، واستفسره عن قصته(فلمّا جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين)(١).

❊❊❊❊❊❊

---

(١) القصص الحق.

الكليم عليه السلام وفرعون

فرّ موسى عليه السلام، من الطاغية فرعون من مصر، وجاء إلى مدين، ونزل ضيفاً عند النبي شعيب عليه السلام.

فقالت إحدى بنتي شعيب:(يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القوي الأمين).

قال شعيب: يا بنيّة، من أين عرفت قوّته وأمانته؟

قالت: أمّا قوّته، فقد عرفته يسقي الدل وحده، وقد كان الدلو لا يتمكن من استقائها إلا عشرة أشخاص.. وأمّا أمانته فقد عرفتها من قوله لي: تأخّري عنّي ودلّيني على الطريق، وأنتِ من خلفي.. حيث لم يرض أن يمشي وقدّامه امرأة.

قال شعيب لموسى:(إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك) يعني: إن صداق بنتي أن تعمل لي ثماني سنوات، أو عشر سنوات، لكنّ إضافة سنتين على ثماني سنوات تفضل منك(وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين).

قال موسى في جواب شعيب:(ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيت

فلا عدوان عليّ) سواء خدمتك ثماني سنوات، أم عشر سنوات. فلا لوم بعد ذلك علي. ثم قال موسى:(والله على ما نقول وكيل).

وقبل شعيب الكلام، وزوّج موسى بإحدى ابنتيه، وهي التي ذهبت إلى موسى لتدعوه إلى دار أبيها، وقالت لأبيها:(يا أبت استأجره).

أما موسى فقد قرّت عيناه بالزواج من بنت شعيب.. وخدم شعيباً عشر سنوات تبرّعاً وفضلاً.

(فلمّا قضى موسى الأجل) وتمّت خدمة عشر سنين، قال لشعيب: لا بدّ لي أن ارجع إلى وطني وأمّي وأهل بيتي، وطلب من شعيب مؤونة.. فأجازه شعيب بالرجوع، وزوّده بعددٍ من الأغنام، كي يعيش هو وزوجته بصوفها ولبنها ولحمها ونتاجها. ثم سلّم إليه عصىً كانت لإبراهيم الخليل عليه السلام.

فتوادعا وخرج موسى بأهله من دار شعيب يسوق غنمه أمامه، ميمّماً شطر مصر وطنه ووطن بني إسرائيل قرابته. وكانا يسيران بأغنامهما ليلاً ونهاراً.. حتّى إذا أظلم ليلٌ من الليالي، وصارا في مفازةٍ وسيعة أصابهم بردٌ شديدٌ وريحٌ وظلمةٌ، وأخطأ الطريق، فلم يعرف الجادة.

فإذا به يرى ناراً من بعيد(آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله

امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر) عن الطريق، فلعلّ عند النار أناس استرشدهم الطريق(أو جذوةٌ من النار لعلّكم تصطلون).

فأقبل نحو النار.. فإذا به يرى شجرةً تلتهب ناراً.. فلما ذهب إليها ليقتبس من النار أهوت النار نحوه، ففزع منها وعدا متقهقراً. ورجعت النار إلى الشجرة! فرجع إليها مرّة ثانية.. فأهوت نحوه! فعدا متقهقرا، وتركها. فالتفت، فرآها قد رجعت إلى الشجرة.. فرجع إليها ثالثةً، فأهوتْ إليه، ففرّ فزعاً ولم يرجع.

وهنا(نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين).

تحيّر موسى في الأمر، ما هذه الشجرة؟ وما هذه النار؟ وما معنى هذا النداء؟! لكنّه جمع قواه، قائلاً: ما الدليل على ذلك، أي على أن الصوت من قبل الله تعالى وأنّه هو الذي خلق الصوت في الشجرة، وكلّم موسى؟!

لكنّ صوتاً ثانياً من الشجرة شقّ الفضاء ووصل إلى مسامع موسى: ما في يمينك يا موسى؟

أجاب موسى قائلاً:(هي عصاي أتوكأ عليها وأهشّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى).

(قال ألقِها يا موسى)! وكان ذلك ليرى موسى الدليل على أن المتكلّم هو الله تعالى.

فألقى موسى عصاه، وإذا به يراها انقلبت حيّة عظيمةً تتحرّك!!(فلما رآها تهتزّ كأنّها جان ولّى مدبراً) من الخوف والدهشة،(ولم يعقب) لم يرجع ليأخذ الحيّة! وازدادت حيرته ووجب قلبه: أترى ما هذه الحيّة؟!

وهناك نودي من جانب الشجرة:(يا موسى أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين) فرجع نحو الحيّة، وإذا به يراها كأنها جذعٌ، يخرج من فمها لهيب النار، ولها صريرًا وكان موسى يرتعد من الخوف، وركبتاه تصطكان، قال موسى: إلهي هذا الكلام الذي اسمع كلامك؟ قال: نعم.. فلا تخف.

وهنا اطمأنَ قلب موسى، ووضع رجله على ذنب الحيّة، ثم تناول لحييها، وإذا به يرى يده في شعبة العصا، قد عادت كما كانت.

ومرّة أخرى، نودي من الشجرة:(اسلك يدك في جيبك) أي أدخلها في جيبك(تخرج بيضاء من غير سوء) أي إذا أخرجتها، رأيتها كالشمس الطالعة تنير، من دون أن يكون ذلك أثراً للبرص ونحوه. فأدخل موسى يده في جيبه، ولما أخرجها أضاءت له الدنيا.

فناداه الله تعالى:(فذانك) العصا واليد(برهانان) دليلان على نبوّتك (من ربك) فـ(اذهب إلى فرعون وملائه) وادعُهم إلى الله تعالى(إنّهم كانوا قوماً فاسقين). وهكذا أعطى الله تعالى لموسى دليلين عظيمين على كونه مرسلاً من قبل الله تعالى:

أحدهما: إنّه كان كلما ألقى عصاه انقلبت حيّة عظيمة، فإذا أخذها رجعت إلى حالتها الأولى، وصارت عصىً كما كانت.

والثاني: إنه كلّما أدخل يده في جيبه، وأخرجها، ظهرت مشرقةً كالشّمس الضاحية، تنير الفضاء، فإذا أدخلها في جيبه ثانية وأخرجها عادت كما كانت.

لكن موسى عليه السلام، خاف من الذهاب إلى فرعون لأنّه قتل من قوم فرعون رجلاً، فمن الممكن أن يقتله فرعون، كما كان قد عزم على ذلك قبل أن يفرّ موسى من مصر بالإضافة إلى أنّ موسى لم يكن منطقياً، فلعلّ فرعون يسخر من كلامه.

أما المعجزتان، فقد كانتا دليل النبوّة، وكبرياء فرعون تمنع عن الإذعان، فكيف يذهب موسى إليه والحال هذه؟ ولذا توجّه إلى الله متضرّعاً:(قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون) قصاصاً عن قتلي لأحدهم!(وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي

رداً) أي معيناً على تبليغ الرسالة(يصدقني إني أخاف أن يكذبون).

وأجاب الله دعاء موسى(قال سنشدّ عضدك بأخيك) وهذا استجابةً لدعائه الأول.

جاء موسى وأخذ معه أخاه هارون ليذهبا إلى فرعون، ويدعواه إلى التوحيد، وأوصاهما الله تعالى بأن يقولا لفرعون قولاً ليناً، لعلّه يتذكّر أو يخشى.

ولما أتى موسى باب قصر فرعون، استأذن الحاجب للدخول؟ فلم يأذن له، وكان ذلك بإيعاز من فرعون.. وبعد مدّة طويلةٍ، وحجبٍ مديد، ضرب موسى باب القصر بعصاه.. ففتحت الأبواب بإذن الله تعالى، ولما مثلا أمام فرعون.

قال لهما فرعون: من أنتما؟

قالا:(إنا رسول رب العالمين فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم).

قال فرعون: وما الدليل على أنكما رسولان؟

قالا:(قد جئناك بآية) علامة تدل على صدق دعوانا وهذه العلامة(من ربّك والسلام على من اتبع الهدى). ثم نصحاه قائلين:(إنّا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذّب وتولّى).

قال فرعون:(ألم نُربّك فينا وليداً)؟ فقد كنت أنت في حجري وفي بيتي، فكيف صرت نبيّاً تدعوني إلى اتّباعك؟ ثم كنت قد(لبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت) قتلت أحد أصحابي، قبل مدّة.. ثم تدّعي النبوّة؟!

قال موسى: نعم أنا الذي قتلت.. ثم(فررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربّي حكماً وجعلني من المرسلين). وأمّا أنّك تقول: أنا ربيت في بيتك فهل تلك نعمةً تمنّها علي؟ إني إنما ربيت في بيتك لظلمك واضطهادك لبني إسرائيل.. فإنّك إن لم تكن تقتل أولاد بني إسرائيل وتستعبدهم، لم تكن أمي تقذفني في البحر، حتى يلقيني اليمّ إليك لتربيني(وتلك نعمةً تمنّها علي أن عبدت بني إسرائيل؟)

وهنا انقطع فرعون عن الكلام، لأنّه لم يحر جواباً.

أشار فرعون إلى بعض خدمه أن يقتل موسى فقام إليه بعضهم ليقتله، لكن الله تعالى حال دون ذلك، فلم يتمكّن السّياف أن يضرب عنقه. ولما عجز فرعون عن قتله، أخذ يحاجه في الله تعالى.

(قال فمن ربّكما يا موسى)؟

(قال ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) أي خلق كل شيء على صورته الخاصة ثم هداه بما أودع فيه من الغرائز إلى حوائجه.

قال فرعون وهو يريد أن يغلب موسى في الكلام، حتى يظهر نفسه في مظهر العالم الفاهم ويظهر موسى في مظهر الجاهل:(فما بال القرون الأولى)؟ فإنك إن صدقت أنك نبي فما حال الناس السابقين الذين ماتوا ولم يؤمنوا بك؟ فهل أنهم معذّبون كما تزعم؟

لكنّ هذا السؤال، لما لم يكن مربوطاً بالمقام، وكان فرعون يريد بذلك تطويل الطريق في المحاجّة، كما هي عادة المعاندين، حيث يفرون من الكلام الذي هو موضع المقصد، إلى كلامٍ تافه لا قيمة له.

لم يُجِب موسى عن كلامه تفصيلاً، وإنما أجاب إجمالاً، بقوله: (عِلمها عند ربي) إن علم تلك القرون، وأحوال الأمم السابقة من الصلاح والفساد لا يرتبط بنا، بل إنه موجود عند الله تعالى وهو المجازي لهم.

وقد أرى موسى عليه السلام عصاه لفرعون لعلّه يؤمن، لكن فرعون تمادى في طغيانه، وأظهر عدم الإيمان.. إنه علم صدق موسى، لكنّه خاف أن يذهب سلطانه وعزّه إن آمن، ولذا أظهر الإنكار.(فتنازعوا أمرهم بينهم) جعل من في بلاط فرعون، يتباحثون حول موسى وعصاه، وما ظهر من أمره، هل صادقٌ أم كاذب؟ وما كيفية الخلاص منه؟(وأسرّوا النجوى) فأخذ يناجي بعضهم بعضاً بكلامٍ سر.

وأخيراً.. قرّر فرعون وأصحابه أن موسى ساحرٌ وليس بنبي، وأن هذه العصا التي تنقلب حيّةً إنما هي سحرٌ وليست بدليل نبوّة.

قال فرعون: إن عملك يا موسى سحرٌ ونحن لسنا من الساحرين حتّى نتمكّن من كسر شوكتك والإتيان بسحر مثل سحرك، وإنما نجعل بيننا وبينك موعداً لندعو السحرة، حتى يأتوك، ويأتوا بمثل سحرك: وحين ذاك يتبين انّك ساحرٌ ولست بنبي، كما تزعم.

هكذا قال فرعون، ليبقى على شوكة نفسه ويظهر للناس أنّه منصفٌ فيما قال. وقبل موسى ذلك.. وجعلوا بينهم موعداً في يومٍ معين.

فأرسل فرعون إلى أطراف مملكته يجمع السحرة، وقد كانت بلاد مصر في تلك الأزمنة مليئة بالساحرين. فاجتمع جمع كبير من السحرة، حتى أن بعض الروايات تقول أن عدد السحرة كان ثمانين ألفاً.

وقالت السحرة لفرعون:(أئنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين)؟ يجب أن تجزل لنا في العطاء إن غلبنا على موسى.. قال فرعون: نعم لكم الأجر الجزيل(وإنكم لمن المقربين) أقربكم إلى بلاطي، وأقضي حوائجكم.

ولم تكن هناك حاجة إلى هذا العدد الكبير من السحرة، وإنما

أراد فرعون إظهار قوّة نفسه، بالإضافة إلى أن الجبّارين - دائماً - يخافون من سيطرة الخصم، فيجمعون حول أنفسهم ما يضمن لهم النجاح - بزعمهم - حتى إذا لم ينفع بعضهم نفع البعض الآخر، إبقاءً على رئاستهم وشوكتهم.

جاء اليوم المعيّن.. وطلعت الشمس، فاصطف الجماعتان فوقف موسى وهارون، وبنو إسرائيل الذين كانوا اتباع موسى عليه السلام، في جانب.. ووقف فرعون ووزراؤه وقوّاده والسحرة وجماهير المصريين، في جانب آخر وارتفعت الشمس، حتى صار وقت الضحى.

وقد جاء السحرة بأقسام من (الحبال) و(العصي) جعلوا فيها الزئبق، ولونوها بألوان الحيات والأفاعي، فإذا ألقيت في الشمس تحركت بحرارة الشمس التي تشع على الزئبق، فيظن الناس أنها حيات حقيقية تتحرك بحركتها الطبيعية.

وقالوا لموسى:(إمّا أن تلقي) عصاك(وإمّا أن نكون نحن الملقين) لعصيّنا وحبالنا.

قال لهم موسى: القوا انتم أوّلاً - وهكذا يكون الإنسان الواثق من نفسه، لا يأبه لما عند خصمٍ، لأنّه يعلم أن الغلبة له -(فألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزّة فرعونَ إنّا لنحن الغالبون) فتحرّكت الحبال

الكثيرة والعصي الكثيرة، حتى ملأت الصحراء حركةً واضطراباً، وخاف الناس، وأخذوا يفرّون، زاعمين أن ذلك كلّه حيّاتٌ وأفاعي. وخاف موسى عليه السلام أن يغترّ الناس بهذه الحبال ولا يميزوا بين (عصاه) الحقيقة وعصيّهم الخيالية.

لكن الله تعالى، أوحى إليه أن (لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك) أي اطرح عصاك على الأرض حتى تنقلب ثعباناً. وألقى موسى عصاه، فإذا بها تنقلب حيّة عظيمةً، أخذت تعد وفي الصحراء، (فإذا هي تلقف ما يأفكون) أي تأكل حبال القوم وعصيّهم بكلّ استعجال.

ولما رأى السحرة ذلك، علموا أن الأمر ليس بسحر، ولو كان سحراً لم يتمكن أن يأكل تلك الحبال والعصيّ التي تربو على الآلاف.. ثم أخذ موسى عصاه، فرجعت كما كانت، من دون أن يزداد حجمها على حجمها السابق وإن كانت أكلت جميع تلك الحبال والعصي.

ولما علم السحرة صدق موسى، ألقوا بأنفسهم على الأرض يسجدون لله سبحانه، ويعترفون بألوهيّته ورسالة موسى، ويخلعون عن أنفسهم إيمانهم السابق، بألوهيّة (فرعون).

قالوا: (آمنا بربّ العالمين ربّ موسى وهارون).

وهنا سقط في يد فرعون.. إنّ أنصاره الذين هيأهم لنصرته انقلبوا عليه، ونصروا خصمه(موسى) والناس بطبعهم في مثل هذا الموقف يؤيدون(موسى) فقد شاهدوا بأنفسهم المعجزة، واعترف بصدقها أهل الخبرة!

فماذا يصنع فرعون، أمام هذه الهزيمة المحقّقة؟ رأى فرعون أن أحسن الوسائل التهديد والتعذيب ـ الذي هو عمل الجبّارين المبطلين في مقابل الحق ـ(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم)؟ كيف تؤمنون بموسى قبل إذني؟ ألست أنا الملك؟ ثم أراد خداع الناس، بأن موسى والسحرة اتفقوا على هذا الأمر، فقال:(إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة).

ثم أخذ يهدّدهم، ويقول:(فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) اقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو بالعكس، لئلا يبقى توازن أجسامكم(ولأصلبنّكم في جذوع النخل) حتى تموتوا.

لكن السحرة الذين آمنوا، أجابوا فرعون ـ بكلّ هدوء واطمئنان ـ (اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) أي تحكم علينا بالتعذيب والفناء من هذه الحياة، ونحن لا نخاف من ذلك، فإننا ننتقل إلى الآخرة والخير السرمديّ.

ما آمن فرعون، بما شاهد من قصة(عصا) موسى التي انقلبت حية. فأتى إليه موسى عليه السلام بثماني معاجز أخر، كلّها تدل على صحّة نبوّته وصدق كلامه حتى اصبح لموسى تسع آيات كلّها خارقة دالّة على أنه مرسلٌ من قبل الله تعالى، فأدخل موسى يده في جيبه، ثم أخرجها، وهي تشرق كالشمس، ثم أدخلها في جيبه وأخرجها فرجعت إلى حالتها الأولى وهكذا كان موسى يفعل كلما أراد.

ثم إنّ(هامان) وزير فرعون، لما رأى هامان إيمان السحرة بموسى، قال لفرعون، إن الناس قد آمنوا بموسى، فانظر من دخل في دينه فاحبسه فحبس فرعون من آمن بموسى من بني إسرائيل خوفاً من توسع الإيمان.

فأرسل الله سبحانه على آل فرعون(الطوفان) بان غرقت ديار مصر بالماء الكثير حتى اضطرّ الأهالي إلى أن يذهبوا خارج المدينة في الصحاري المرتفعة ويعيشوا في الخيام والأكواخ. وقد علم فرعون أن هذا البلاء من أجل موسى عليه السلام، فقال فرعون لموسى ادع ربك يكفّ عنا الطوفان حتى أخلّي عن بني إسرائيل.

فدعا موسى ربّه، فكفّ الله سبحانه ببركة دعاء موسى الطوفان، لكنّ فرعون لم يفكّ بني إسرائيل خوفاً من أن يجتمعوا حول موسى فلا يتمكّن من مقاومتهم، وقد أشار عليه(هامان) وزيره، بعدم فكّهم.

فأرسل الله سبحانه عليهم بعد ذلك(الجراد) فأخذت الجراد تأكل كل شيء لهم، حتى إنّها تأكل لحاهم وشعور جسدهم، فجزع فرعون وآله من ذلك جزعاً شديداً.. فطلب فرعون أن يكفّ الله عنهم الجراد، ليفك بني إسرائيل، فدعا موسى ربّه، فكفّ عنهم الجراد لكنّ فرعون لم يفِ، خوفاً من التفاف بني إسرائيل حول موسى، وعدم سهولة مقاومتهم بعد ذلك.

فأرسل الله سبحانه على آل فرعون(القمل) فكثرت فيهم، حتى أن وجه الأرض امتلأت، ولقوا من الإرهاق والصعوبة ما لا يطاق.

وطلب فرعون من موسى عليه السلام أن يدع والله ليكف عنهم القمل، فإذا فعل ذلك أطلق سراح بني إسرائيل. فدعا موسى و كفّ الله عنهم، لكنّ فرعون نكث بعهده ولم يطلق بني إسرائيل.

فأرسل الله سبحانه عليهم(الضفادع) فكانت تكون في طعامهم وشرابهم وقدورهم وأوانيهم، ولقوا من ذلك عنتاً وعذاباً.

فطلب فرعون من موسى أن يكفّ الله عنهم الضفادع، فإن فعل ذلك كفّ عن بني إسرائيل وأرسلهم إلى موسى. فدعا موسى، وارتفع عنهم(الضفدع) لكنّ فرعون لم يف بعهده بل ألقى بني إسرائيل في السجون.

ثم ابتلاهم الله سبحانه بـ(الدم) فقد تحوّل(ماء النيل) دماً، فكان الإسرائيلي إذا أراد شربه، تبدّل عنده ماءاً، فلم يهنأ قبطي بالماء، في شربه، ولا في سائر حوائجه.

فطلب فرعون من موسى عليه السلام أن يدع والله، ليرجع الماء كما كان، ووعده إن فعل موسى ذلك، كفّ عن بني إسرائيل، وأطلق سراحهم ليكونوا مع موسى عليه السلام. فدعا موسى، وارتفع(الدم) لكنّ فرعون العنيد لم يف بما وعد.

ثم ابتلاهم الله سبحانه بـ(الرجس) وهو(الثلج) فنزلت عليهم(الثلوج) وبرد الهواء برداً شديداً، ما لم يكونوا يعهدون، وطلب فرعون من موسى أن يرفع(الله) عنهم الرجس ليكف هو عن بني إسرائيل. فدعا موسى، ورفعه الله سبحانه.. لكن فرعون بقي على عناده ولم يطلق بني إسرائيل، حسب ما وعد.

وأخيراً.. ابتلاهم الله سبحانه بـ(الطاعون) فأخذ الطاعون يغزوهم، حتى مات من القبط جمعٌ كثير.

فطلب فرعون من موسى، أن يدع والله لرفع الطاعون واعداً إياه أن يكف عن بني إسرائيل. فدعا موسى، ورفع الله عنهم الطاعون. وهنا.. اضطرّ فرعون للكفّ عن بني إسرائيل، فأطلق سراحهم من الحبس.

واجتمع بنو إسرائيل إلى موسى عليه السلام يسترشدونه في وجه الخلاص من فرعون الذي بقي عاتياً، لا يؤمن، ويضع المشاكل في طريقهم ويعرقل سير الدعوة.

وخاف(هامان) وزير فرعون، من التفاف بني إسرائيل حول موسى، وأنّب فرعون على تخليه عن بني إسرائيل، فقال له: قد نهيتك عن التخلّي عن بني إسرائيل، وها أنت ترى نتيجة عملك فقد التفوا حول موسى، ويخشى من عاقبة هذا التجمع؟

لكن الأمر كان قد انقضى أوانه، وكان لوم(هامان) في غير موقعه فلم يبق للقبط طاقة في مواجهة العذاب الذي كان ينزل بهم من جرّاء حبس بني إسرائيل، ودعاء موسى.

وأخيراً.. أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج مع بني إسرائيل من أرض مصر، إلى مكان آخر يتمكنون فيه من تنظيم أمورهم، وعبادتهم لله سبحانه بلا مزاحم، وقرّر موسى الخروج، وأخبر بني إسرائيل بذلك. فتهيأ الجمع الغفير للفرار من(فرعون) والتخلص من سلطانه(١).

---

(١) القصص الحق.

الكليم وبنو إسرائيل

أقام موسى عليه السلام في(طور سيناء) وهو جبل كان يناجي الكليم عليه ربه أربعين يوماً صائماً، قائماً، مناجياً ربه.

وبعد تمام الأربعين، أنزل الله عليه الكتاب المقدس(توراة) وقد قال سبحانه:(إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور). وكان هذا الكتاب على ألواحٍ من(زبرجد أخضر) من ألواح الجنة. وفيها أحكام الله سبحانه، التي تنظّمّ أمور البشر أمور دينهم، وأمور دنياهم.

وقد كان اللازم على كل البشر، أن يتّبعوا هذا الكتاب المقدس في جميع شؤونهم ـ لأن موسى عليه السلام كان مبعوثاً لكل البشر ـ.

وهكذا كان هذا الكتاب هو كتاب الله الذي يجب على الأجيال اللاحقة لموسى عليه السلام اتباعه والعمل به، حتى إذا جاء دور المسيح عيسى عليه السلام، صار البشر مأمورين باتباعه وكان كتاب المسيح(الإنجيل)، وكان الإنجيل نافذ المفعول، حتى جاء دور نبي الإسلام(محمد صلى الله عليه وآله) فأتى بـ(القرآن الكريم) ناسخاً لما تقدّم من الأحكام، باقياً إلى الأبد، فقال سبحانه:(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين).

لكن اليهود، حرّفوا هذا الكتاب (التوراة) كما قال سبحانه: (يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظّاً مما ذُكّروا به) ولذا ليس (التوراة) الآن هو الصحيح عندهم. والنسخة الأصليّة من (التوراة) التي نزلت من الجنّة، أودعها موسى عليه السلام في (بطن الجبل) لمّا حضرته الوفاة - وكانت نسخٌ منها بأيدي اليهود. ثمّ حرّفوها - فلمّا بعث نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلّم، أظهر الله تلك النسخة الأصلية له، فكانت عنده، ثم أودعها علياً عليه السلام، وكذلك انتقلت من كل إمام إلى إمام آخر، وهي موجودة الآن بيد الإمام المهدي المنتظر عليه السلام.

***

لمّا أخذ موسى عليه السلام ألواح التوراة، في جبل سيناء، جاء بها إلى بني إسرائيل في (التيه) فلمّا رآهم عبدوا العجل، غضب أشد الغضب، حتى إنه (ألقى الألواح) من يده تضجراً مما فعله اليهود، وإن كان علم بذلك من قبل - بوحي الله تعالى - لكن الرؤية أثارت موسى عليه السلام أكثر من الخبر. (ولمّا سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون).

ثم انظر إلى عجيب الأمر:

كان بنو إسرائيل هم الذين ألحّوا على موسى عليه السلام، بسؤال الله تعالى إنزال كتاب إليهم فيه نظام دينهم ودنياهم، فإنهم ملّوا من عدم النظام الذي كان يسود حياتهم ومن جرّاء الفوضى وعدم وجود منهج لديهم، لكن لمّا جاءهم موسى بالكتاب، بعد تلك المشاكل، لم يقبلوا ذلك الكتاب.

وقد أمرهم موسى عليه السلام أن يسجدوا لله شاكرين، دلالة على قبولهم التوراة، لكنهم كرهوا ذلك فلم يسجدوا، فرفع الله قسماً من الجبل، حتى أظلّهم، وقيل لهم: إن لم تسجدوا دلالةً على قبول(التوراة) سقط الجبل عليكم بما فيه هلاككم، فاضطروا إلى السجود، لكن هل خفّف الخوف عنادهم؟ كلا!

إنهم سجدوا بشقّ وجوههم، لا بالجبهة، ينظرون إلى الجبل، هل يذهب إلى مكانه، حتى يرفعوا رؤوسهم، أو يبقى، حتى يبقوا في حالة سجود؟(وإذ نتقنا الجبل) رفعناه فوق رؤوسهم(كأنه ظلّة) كالسقوف التي تظلّل الإنسان(وظنّوا أنه واقعٌ بهم) فإن قطعة الجبل المعلقة فوق الرؤوس، تلقي في النفس خوف الوقوع فقلنا لهم(خذوا ما آتيناكم) من التوراة(بقوة) في العمل به والالتزام بأوامره(واذكروا ما فيه لعلّكم تتقون). إنهم وعدوا أخذ الكتاب بقوّة، وسجدوا، حتى رجع الجبل إلى مكانه.. لكنهم هل وفوا بما وعدوا؟ كلا!

بل:(ثم تولّيتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) وهكذا(حملوا التوراة ثم لم يحملوها) أخذوها ظاهراً، ولم يعملوا بأحكامها، فكان مثلهم:(كمثل الحمار يحمل أسفاراً) كتباً من العلم، إنها على ظهر الحمار، لكن الحمار لا يستفيد منها أبداً.

* * *

لقد كان ابتلاء موسى عليه السلام باليهود، ابتلاءً عظيماً، فإنهم في نفس الوقت الذي كانوا يعترفون له بالنبوة، ويرون منه الآيات، لا يصدّقون كلامه، لا خفاءً فحسب، بل كانوا يجهرون بذلك جهراً.

ومن ذلك أنّ موسى عليه السلام حين أخبرهم بأن الله سبحانه، يناجيه ويتكلّم معه، أنكر جماعة منهم، وقالوا: إنا لا نصدّق قولك وكيف يمكن أن يتكلّم الله معك؟ ولن نؤمن إلا إذا سمعنا نحن كلام الله، فاذهب بنا إلى الطور، حتى نسمع نحن كما تسمع أنت.

وأجازه الله سبحانه في ذلك.. وقد كان الطالبون لهذا الأمر سبعين ألفاً، فاختار موسى منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين(واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا) أي الوقت المحدود لسماعهم كلام الله تعالى.

فخرج بهم إلى طور سيناء، فأقامهم في سفح الجبل، وصعد

موسى إلى الطور، وسأل الله سبحانه أن يكلّمه ويسمع القوم كلامه، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وكلّم موسى، بحيث سمع السبعون كلام الله تعالى.

ولم يكن لكلامه اتجاه خاص - كما يكلّم أحدنا صاحبه - بل جاء كلامه من فوق ومن تحت، ومن اليمين واليسار، ومن الخلف والأمام، فإنه تعالى لا يتكلّم باللسان، ولا له جهةٌ خاصّةٌ وإنما يلقي الكلام في الفضاء، ولذا يحيط الكلام بالسامع.

ولمّا سمعوا كلامه سبحانه، قالوا: لا نصدّق أن هذا كلام الله، فيجب أن نرى الله عياناً حتى نؤمن بك، وأنّك كليم الله ونبيّه.. وحيث تمّت عليهم الحجة ولم يبق إلا العناد، أرسل الله صاعقة أرجفتهم وأهلكتهم جميعاً.

لكن موسى عليه السلام، خاف أن يقول بنو إسرائيل: إنك لم تكن تقدر على إسماعهم كلام الله، ولذا قتلتهم ومن هذه الجهة طلب من الله سبحانه أن يحييهم. فاستجاب الله سبحانه دعاءه وأحيا السبعين، فرجعوا مع موسى عليه السلام، وأخبروا بني إسرائيل بالقصة كلّها(وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) حين نزول الصاعقة(فلمّا أخذتهم الرجفة) الّتي أحدثتها الصاعقة(قال) موسى: يا(رب) كيف تهلكهم الآن؟ فإن

بني إسرائيل يتهمونني بقتلهم، و(لو شئت) إهلاكهم بسبب عنادهم، لكنت(أهلكتهم من قبل وإياي) فإني لا مانع لي من أن تهلكني إذا اقتضت مشيئتك ذلك.

فاستجاب الله دعاء موسى في إحيائكم يا معاشر اليهود(ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون) نعمي وآلائي.

ولم يكن كلام موسى عليه السلام حول إهلاك الله اليهود اعتراضاً، وإنما ضراعةً ودعاءً. كما أنه سبحانه لم يبد له في إحيائهم ـ بعد أن لم يعلم، تعالى عن ذلك ـ وإنما عاقبهم حسب عصيانهم، ثم أحياهم حسب المصلحة، واستجابة لدعاء نبيه العظيم موسى عليه السلام، وليزيد حجّةً على حجة.

ومما يلفت النظر في هذه القصة:

أن موسى عليه السلام مع أنه نبي عظيم من أولي العزم وأصوب نظراً من سائر الناس، وأحسن معرفة بالناس.. لم يكن اختياره للسبعين، اختياراً للمؤمن الصامد في إيمانه، ولذا كفروا بالله، وطلبوا المستحيل، بالإضافة إلى كفرهم بموسى عليه السلام.. فهل بعد هذا يمكن أن يناط اختيار الواسطة بين الله وخلقه إلى الناس؟؟

* * *

قد يستغرب الإنسان إذا رأى العناد من جماعة من الجهلة، لكن المظنون أن يتبخّر كل استغراب في جنب الاستغراب الذي يحصل للإنسان حين يلاحظ أحوال اليهودا.

أسمعت كيف طلبوا سماع كلام الله، وإلا رجعوا عن إيمانهم؟ فقبل موسى عليه السلام كلامهم، وسمعوا كلام الله.

ثم.. أسمعت: كيف عاندوا، وقالوا:(لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً)؟ فأخذتهم الصاعقة، لتمرّدهم وعصيانهم، واحترقوا.

ثم.. أسمعت: كيف طلب موسى عليه السلام أن يحييهم الله تعالى، فاستجاب الله له؟

فاسمع الغريب العجيب الآن!:

إن(السبعين نفراً) الذين بعثوا بعد الموت، بدعاء الكليم عليه السلام، لم ينفكّوا عن عنادهم وتماديهم في الغيّ، فإنهم لمّا أحياهم الله تعالى، قالوا لموسى عليه السلام: إنك لو سألت الله أن تنظر إليه لأجابك، وكنت تخبرنا كيف هو؟ فنعرفه حق معرفته.

فأجابهم موسى عليه السلام: بأن الله سبحانه لا يمكن أن يراه أحد ـ فإنه ليس بجسم وما أشبه الجسم، حتى يقبل الرؤية ـ.

لكن بني إسرائيل أصرّوا على كلامهم، ووقفوا إيمانهم على

سؤال موسى عليه السلام ربّه. فاضطرّ النبي العظيم لتلبية طلبهم حرصاً على إيمانهم، ولمصلحة أن يسمع الجواب: بالنفي.. فيعرف بنو إسرائيل عدم الإمكان، من كلام الله تعالى. ولذا قال موسى عليه السلام:(ربّ أرني أنظر إليك).

ويا لهول المطلب، حين سأل موسى عليه السلام هذا السؤال؟ فقد أحاط بموسى عليه السلام نارٌ من جوانبه، وظهرت له أفواج الملائكة، تهبط من أبواب السماء، علـى أيديهم العمد في رأسها النور، يمرّون به، قائلين: يا بن عمران سألت عظيما!!

ولعل ذلك كلّه كان، حتى يحكي موسى عليه السلام لبني إسرائيل، فيعرفوا الغلطة الكبيرة التي ارتكبوها.. أو كانوا يرون هذه الأحداث حين صارت.

* * *

وكيف كان الأمر. فقد أجاب الله تعالى عن سؤال موسى عليه السلام، بقوله:(لن تراني) لا في الدنيا ولا في الآخرة(ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) لكن استقرار الجبل حين إرادة الله سبحانه زواله عن مقرّه، مستحيل، فرؤيته تعالى مستحيل.. ثم إن الله تعالى(تجلّى للجبل) بأن أظهر عليه أثر قدرته وإرادته

بتحطيم الجبل(فلمّا تجلّى ربه للجبل جعله) أي جعل الجبل(دكاً) محطّماً(وخرّ) أي سقط(موسى صعقاً) قد أخذتـه الغشوة، من هول ما رأى عند اندكاك الجبل(فلمّا أفاق) موسى من غشوته(قال سبحانك) اللهم(تبت إليك) أي أني راجع إليك في وصفك وأمرك، لا اطلب منك ما لا يكون، وإنما كان سؤال لأجل هؤلاء السبعين ـ كما تعلم ـ (وأنا أوّل المؤمنين) بك وبصفاتك، بأنّك لا ترى أبداً.

فـ(قال) الله سبحانه:(يا موسى إني اصطفيتك) واخترتك(على الناس برسالاتي) حيث جعلتك رسولاً(وبكلامي) حيث تكلّمت معك(فخذ ما آتيتك) من الأحكام والألواح(وكن من الشاكرين) لنعمائي.

(وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) فإن الصفة العامّة لكتب السماء أن تشتمل على الخطوط العريضة، والقواعد العامّة، وللحياة السعيدة، لا بصورة الإجمال والاحتمال، بل بصورة التفصيل.. ولذا ورد في وصف القرآن(رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) ـ على تفسير(الكتاب المبين) بالقرآن ـ.

(فخذها بقوّة) بالعمل بكل صمود واستمرار(وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) بالإتيان بالأحسن من مصاديق كلّ أمرٍ ـ مثلاً: الصلاة مع حضور القلب أحسن أنواع الصلاة، فإذا أمرنا بالصلاة.. أتينا بالقسم الأحسن منها: أي مع حضور القلب.. أمّا الذين يخالفون الأوامر ولا

يأخذون بأحكام التوراة، فجزاؤهم غداً العقاب والنكال، و(سأريكم دار الفاسقين) الخارجين عن إطاعتي.

***

لقد كان ابتلاء موسى عليه السلام ببني إسرائيل عظيماً، حتى إن أقرباءه ما كانوا يطيعون أمره ولا ينفّذون أوامر الله سبحانه التي يأتي بها موسى بن عمران. فقد كان (قارون) من أقرباء موسى عليه السلام، وكان له صوتٌ حسن، فيقرأ التوراة، قراءة حسنة، وكان يعرف (الكيمياء) وبذلك زادت أمواله زيادةً مدهشة، وكان موسى عليه السلام يحبّه لقرابته ودينه وجودة قراءته لكتاب الله.

لكن الشيطان لم يزل يغويه ويزيّن له، حتى أوقعه في الكبر والطغيان، كما قال سبحان: (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى).

وفي حين كان بنو إسرائيل في التيه، أمرهم موسى عليه السلام بالضراعة إلى الله تعالى، لعلّه سبحانه يستجيب دعاءهم، فينقذهم من البلاء الذي وقعوا فيه بعصيانهم، فقبلت بنو إسرائيل كلام موسى، وأخذوا في الضراعة والابتهال، لكنّ قارون لم يحضر.. وأمره موسى بذلك فأبى.

وفي بعض الآثار: إن موسى أمره بإعطاء الزكاة عن أمواله، فأبى ولم يقبل.

وزاد الأمر إعضالاً، أنّه أخذ يتكبّر على بني إسرائيل بماله وجماله وصورته فكان يخرج عليهم في زينة بين خدمٍ وغلمان، استطالةً وتكبراً. ولم تنفع فيه موعظة موسى عليه السلام.

بل سبّب ذلك حقداً على الكليم، وراح يبغي له الغوائل، حتى ورد في بعض الآثار: أنه حرّض امرأة مومس بالمال على أن تقف على رأس موسى عليه السلام، حين يكون مشتغلاً بوعظ بني إسرائيل فتنسب إلى موسى أنه أراد الزنا بها، وجعل لها من المال مائة ألف درهم إن فعلت ذلك.. لكنّ المرأة كانت أنظف قلباً من قارون، فحين كان موسى عليه السلام بين بني إسرائيل جاءت حتى وقفت على رؤوسهم، ثمّ قالت:

يا موسى! إنّ قارون أعطاني مائة ألف درهم، على أن أقول بين بني إسرائيل ـ على رؤوس الأشهاد ـ إنك دعوتني إلى نفسك.. ثم أردفت كلامها قائلة: إنك يا موسى أجل من ذلك، معاذ الله أن تكون دعوتني، فلقد أكرمك الله عن ذلك.

وكيف كان الأمر، فقد اشتد غضب موسى عليه السلام، على قارون، ودعا الله أن يستجيب دعاءه في تعذيب قارون. فدخل على قارون في داره، حيث مقرّه، ومحلّ خزائنه وكنوزه، فلمّا رآه قارون عرف آثار الغضب على وجهه، وكيف لا يغضب على من تجبّر واستكبر، وبدل

نعمة الله كفراً، وقطع رحمه، فقد أمر قارون ـ استهزاءً بموسى عليه السلام ـ بعض خدمه بأن يصب على رأس موسى طبقاً من رماد!!

قال(قارون) لمّا رأى غضب موسى وكان يعرف أنّه عليه السلام قادر على الانتقام منه:

أسألك يا موسى بالرحم التي بيني وبينك إلا كففت عنّي؟ لكن الأمر كان قد انتهى، وكان الطلب في غير أوانه(فلمّا رأوا بأسنا قالوا آمنّا).

قال موسى للأرض: خذيه وكنوزه، فأخذته الأرض إلى ركبتيه. وأخذ قارون يضرع، وموسى عليه السلام يكرّر للأرض الأمر بأخذه. حتى انخسفت الأرض به وبداره وبما عنده من كنوز وأموال.

فلم يبق منه باقية، وانتهى كل شيء، فقد التحق هذا الطاغي الجديد، بالطاغي القديم(فرعون) وزادت في التاريخ عبرة وعظة جديدة لمن يطغى ويتكبّر، كيف يكون مصيره؟

وهنا تبين للذين كانوا يتمنون أن يكون لهم أموال مثل أموال قارون، أن الأفضل عدم مثل هذا المال الموجب للطغيان والخسران.

* * *

(إن قارون كان من قوم موسى) والمؤمنين به(فبغى) قارون(عليهم)

أي على موسى(و) قد(آتيناه) أعطيناه(من الكنوز) والخزائن(ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) فجماعةً كبيرةً ـ حتى قيل أنّهم كانوا بين عشرة وخمسة عشر ـ ما كانوا يتمكنون من حمل مفاتيح خزائنه بيسر، فقد كانت المفاتيح ثقيلة، فكم كانت الأموال الموجودة في الكنوز؟؟

(إذ قال له) أي لقارون(قومه) المؤمنون(لا تفرح) بهذه الأموال، فإن المال مظنّة الإهلاك إذ قلّما صار الإنسان ذا مال، ووفى حق الله فيه(إن الله لا يحب الفرحين) بالأمور الدنيوية التي لا ترتبط بالله سبحانه، فإنه سبحانه يحب الإنسان الذي يحب الله تعالى.

ثم قال بنو إسرائيل لقارون:(وابتغ) أي اطلب(فيما آتاك الله) من الأموال(الدار الآخرة) بالإنفاق من مالك في سبيل الله(ولا تنس نصيبك من الدنيا) فلست مأموراً بإعطاء كل ما لك لله، بل أعط قسماً لآخرتك، وأبق قسماً لدنياك، فإنه ليس من الله من ترك آخرته لدنياه، ولا من ترك دنياه لآخرته(ولا تبغ الفساد في الأرض) لا تطلب العناد، بمنع الحقوق والتكبر وما أشبه(إن الله لا يحب المفسدين).

لم يرق كلام الناصحين لقارون، وهل يقبل المتكبّر المتعالي النصح؟

فأجاب القوم قائلاً: إنه ليس لأحد حق في هذه الأموال التي تحت يديّ(قال إنما أوتيته على علم عندي) فأنا بعلمي حصّلت هذه الأموال، لا بمشورة الآخرين، حتى يكون لهم حقٌ في مالي(أولم يعلم أنّ الله قد أهلك من قبله من القرون) والأجيال(من هو أشد منه) أي من قارون(قوّة وأكثر جمعاً ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون)؟ فإن المجرم في كل جيل يهلك بدون أن يحاكم في هذه الدنيا، وإنما محاكمته يوم القيامة.. ألم يعلم قارون هلاك المتكبرين من قبله، فكيف يأمن من الله تعالى؟

إنه لم يكف عن كبريائه، بل(خرج على قومه في زينته) وأبهته وفخفخته، استطالة عليهم، وتكبّراً وعناداً، فلمّا نظر إلى كوكبته القوم(قال الذين يريدون الحياة الدنيا) بدون التفات إلى الآخرة:(يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظّ عظيم)؟ لكن عقلاء القوم، ردّوا الذين تمنّوا هذا التمنّي، قائلين:(ويلكم ثواب الله خيرٌ) من هذه الأموال(لمن آمن) بالله ورسله وما جاءوا به(وعمل صالحاً) بإطاعة أوامر الله والانتهاء عن نواهيه(ولا يلقّاها) أي لا يدرك ذلك الثواب(إلا الصابرون) الذين صبروا على طاعته سبحانه، ورضوا بقضائه.

فلننظر عاقبة(قارون) وما جرّته إليه أمواله، وكبرياؤه(فخسفنا به وبداره الأرض) إذ ساخت الأرض بقارون وداره، التي فيها خزائنه(فما

كان له من فئة) جماعة(ينصرونه من دون الله) فهل يتمكن أحد أن ينصر من أراد الله عقابه؟(وما كان من المنتصرين) هذه حالة قارون المتكبر، وخزائنه التي منع حقها.. فما كان موقف أولئك الذين تمنّوا مكانه، من هذه الحادثة؟

(وأصبح الذين تمنّوا مكانه) أي مكان قارون، بأن يكون لهم مثل ما لقارون(بالأمس يقولون وي) عجباً(كأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي يوسّع ويضيّق سب حكمته البالغة، وإنما لم يوسّع علينا علماً منه بأن التوسعة مصيرها مصير قارون وأمواله(لولا أن مَنّ الله علينا) بعدم إعطائنا مثل مال قارون(لخسف بنا وي) عجباً(كأنه لا يفلح الكافرون) بأمر الله سبحانه. وإلى هنا تنتهي قصّة(قارون) وتبقى عبرة للأثرياء والمتكبّرين إلى يوم القيامة.

* * *

وقعت في زمان موسى عليه السلام قصّة طريفة، في بني إسرائيل، وذلك أن رجلاً قتل ابن عمّ له. لتنازع وقع بينهما على امرأة، ثم جاء القاتل بالمقتول إلى موسى عليه السلام قائلاً: إنه ابن عمّي مقتولاً، فاطلب قاتله؟

فأوحى الله تعالى إلى موسى يأمرهم أن يذبحوا بقرةً، ويضربوا المقتول ببعض تلك البقرة، فعلوا ذلك فأحيا الله المقتول، فأخبر بأن

قاتله هو ابن عمّه، الذي جاء به مكراً وخداعاً، فقتله موسى عليه السلام، قصاصاً، فقد كان رجل من خيار بني إسرائيل وعلمائهم، خطب امرأة، فرغبوا فيه، وخطبها في نفس الوقت ابن عمّ لذلك الرجل، وكان فاسقاً، فرغبوا عنه، وأخيراً زوّجت المرأة للخير، فحسده ابن عمّه وحقد عليه، فاختفى في طريقه، ولمّا أن مرّ الخير، قتله الفاسق غيلةً.. ثم حمله إلى موسى عليه السلام، قائلاً: هذا ابن عمّي قد قتل ـ وأراد بذلك أخذ ديته أيضاً ـ.

فاجتمع بنو إسرائيل عند موسى لفصل القصّة.. وصادف هذا الحادث، أمر ولد بارّ بأبيه، كانت له سلعةٌ، وأراد بيعها، وكان في غرفة مقفلة، والمفتاح تحت راس أبيه النائم، لكن الولد كره أو يوقظ الأب لأجل ربح السلعة وردّ المشتري.. فلمّا استيقظ الأُب، وعرف ما عمله الولد، أعطاه بقرة كانت له جزاء لبرّه وحسن أدبه.

لقد شكر الله للولد برّه بأبيه، فأوحى إلى موسى عليه السلام، بشراء بقرةٍ لها علامات مخصوصة، وكانت تلك العلامات منحصرة في بقرة الولد، فلمّا أرادوا شرائها لم يبعها إلا بملء جلدها ذهباً ـ ولعلّ ذلك كان بإيعاز من موسى عليه السلام ـ(إذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) ليتبين القاتل(قالوا أتتخذنا هزواً) فأي ربط بين ذبح البقرة، وظهور القاتل؟(قال) موسى عليه السلام:(أعوذ بالله أن أكون من

الجاهلين) بأن آمركم بشيء عبثاً؟(قالوا): إذن فـ(ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي)؟ أي كيف يجب أن تكون البقرة؟فقد أخذوا يشدّدون على أنفسهم، فشدّد الله عليهم ولو أنهم حين أمروا بذبح البقرة، أخذوا أية بقرة وذبحوها، كان كافياً في الامتثال، ولم يحتاجوا إلى دفع مبلغ باهظ.

(قال) موسى عليه السلام:(إنه) سبحانه(يقول إنها بقرةٌ لا فارضٌ) كبيـرة السن(ولا بكرٌ) صغيرة السن(عوانٌ) وسط(بين ذلك) الكبر والصغر(فافعلوا ما تؤمرون) من ذبح البقرة(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها)؟ فقد عرفنا سنّها(قال) موسى عليه السلام:(إنه) تعالى(يقول إنها بقرة صفراءُ فاقع) حسن الصفرة(لونها تسرّ الناظرين) إلى البقر.

(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي)؟ فقد عرفنا عمرها، ولونها، وبقي أن نعرف عملها، هل تكون عاملة أم لا؟(إن البقر تشابه علينا) فلا ندري الوصف المطلوب منّا في البقرة(وإنا إن شاء الله لمهتدون) في إطاعة أوامر الله تعالى.

(قال) موسى عليه السلام:(إنه) عز اسمه(يقول إنها بقرة لا ذلول) أي لم تذلّ بالعمل(تثير الأرض) بأن لا تكون تكرب الأرض لغرض الزرع(ولا تسقي الحرث) بأن لا تكون عاملة(مسلّمة) قد سلمت من العيوب(لا شية فيها) أي لا يكون فيها لون مخالفٌ للونها.

(قالوا الآن) وبعد ذكر هذه الأوصاف(جئت) يا موسى(بالحق) الواضح.(فذبحوها وما كادوا يفعلون) أي كانوا بعيدين عن ذبح مثل هذه البقرة، لغلاء ثمنها، فقد أرادوا عدم شرائها، وراجعوا موسى في ذلك، فقال لهم: لابد أن تفعلوا، فاشتروها وذبحوها.. ولعلّ غلاء الثمن كان تعليماً لهم بأن الواجب إطاعة أوامر الله تعالى، مهما كلّف الأمر.

(وإذ قتلتم) يا بني إسرائيل(نفساً فادّارأتم فيها) أي تدافعتم، فقال كل واحد منكم: أنا لم أقتله(والله مخرج ما كنتم تكتمون) من عرفانكم بالقاتل(فقلنا اضربوه) أي المقتول(ببعضها) أي ببعض أجزاء البقرة.. فضربوا ـ كما أمروا ـ فأحياه الله، وأخبر أن ابن عمه قتله، فاقتص منه(كذلك يحيي الله الموتى) فكما قدر سبحانه على إحياء هذا المقتول، يقدر على إحياء البشر يوم القيامة(ويريكم آياته لعلّكم تعقلون).

وفي هذه القصة عبر وعظات لمن أراد الاعتبار.

* * *

وفي أحوال موسى عليه السلام قصة طريفة، وقعت بينه وبين نبي الله الخضر عليه السلام:

فقد أمر الله موسى أن يتبع الخضر، وكانت الغاية من هذا الاتباع، موعظة موسى بسبب الخضر، ولا عجب في ذلك، فقد كان رسول الإسلام(عليه وعلى آله الصلاة والسلام) يقول لجبرئيل عليه السلام: عظني.. فلا يمكن أن يقال: كيف يمكن أن يكون المتعلّم وهو موسى عليه السلام أفضل من المعلم وهو الخضر عليه السلام؟

لقد تبع موسى الخضر، واشترط عليه الخضر أن لا يسأله عمّا يفعله، إن أراد دوام الصحبة، وقبل موسى الشرط، فخرجا يمشيان، حتى وصلا إلى سفينة، فركباها، وأخذ الخضر يثقب السفينة، فاعترض عليه موسى لماذا يخرق السفينة؟.. ثم لمّا نزلا من السفينة لقيا ولداً يمشي، فقتله الخضر فأثار هذا العمل موسى عليه السلام فاعترض عليه، لم قتل ولداً بريئاً؟ ثم دخلا قرية وهما محتاجان إلى الطعام، فلم يطعمهما أهل القرية، ثم رأيا جداراً مائلاً.. فأخذ الخضر يرمّمه ويصلحه، فاعترض عليه موسى عليه السلام: لماذا رمّم الجدار بدون أخذ الأجرة، ليستفيدا منها في شراء الطعام؟

وهنا فارق الخضر موسى، لأن شرط الصحبة انتهى، باعتراضات موسى عليه السلام، وأخبره عن مبرّرات عمله:

فخرق السفينة كان لمصلحة أصحابها، إذ لو وصلت السفينة سالمةً إلى الجرف كان الملك الموجود في ساحل البحر، يأخذ السفينة

الصالحة، أمّا المخروقة فلم يكن يرغب فيها.

وقتل الولد إنّما كان درءاً لفساد كبير، لأنه علم أنّه إن بقي الولد فسد وأفسد والديه، فكان قتله قبل الإفساد خيراً للولد ولوالديه، فالله يعوّض عن الولد، بولد آخر صالح.

وترميم الجدار إنما كان لحفظ كنزٍ تحته لأيتام فلو ترك الجدار حتى سقط، لم يعرف الأيتام ـ إذا كبروا ـ محل الكنز، ويضيع مالهم المدّخر لهم.

وهذه القصة الطريفة، إنما كانت بعد أن قال موسى عليه السلام لوصيه(يوشع): إن الله أمرني أن أتبع رجلاً عند مجمع البحرين، فتزوّد يوشع بسمك مملّح، فلمّا بلغا المكان، أراد يوشع غسل السمك بالماء، فأحيا الله السمكة. وانسابت في الماء ـ وكان هذا علامة وصولهما إلى موضع الخضر عليه السلام ففحصا في ذلك الموضع، حتى لقيا الخضر.. ثم اتبعه موسى عليه السلام وحدث ما حدث.

***

(وإذ قال موسى لفتاه) أي الشاب الذي كان يلازمه، وهو وصيه يوشع(لا أبرح) لا أزال أسير حتى أصل إلى المقصد(حتى أبلغ مجمع البحرين) محل التقاء البحر الأبيض والبحر الأحمر أو غيره(أو أمضي

حقباً) أي أحقاباً وأزمنةً طويلة، إن لم أظفر بمقصدي عند مجمع البحرين..

وهكذا سارا(فلمّا بلغا مجمع بينهما) أي مجمع البحرين(نسيا حوتهما) أي السمكة، فإنها عاشت بعد موتها وطفرت في الماء، ونسي يوشع القصة، فلم ينقلها لموسى عليه السلام(فاتخذ) الحوت(سبيله في البحر سرباً) أي مسلكاً يذهب فيه.

(فلما جاوزا) موسى ويوشع، مجمع البحرين(قال) موسى(لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) وتعباً، فلنأكل السمكة، لنتقوى في مواصلة السير.. وهنا تذكّر يوشع قصة الحوت فـ(قال) لموسى:(أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة)؟ هل تذكر وقت نزولنا عند الصخرة في مجمع البحرين(فإني نسيت الحوت) حتى غاب في الماء(وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) أي كان الشيطان السبب في نسياني له(واتخذ) الحوت(سبيله في البحر عجباً) أي اتخاذاً عجباً فإنه استعاد حياته وانساب في الماء.

(قال) موسى لمّا سمع هذا الخبر:(ذلك) المكان الذي ظهرت فيه هذه الآية،(ما كنّا نبغ) أي نطلب ونقصد الوصول إليه(فارتدّا) رجعا أي موسى ويوشع(على آثارهما) أي الآثار التي كانت لهما في

الأرض يريد الرجوع في نفس الطريق(قصصاً) من قصّ بمعنى اتبع الأثر.

(فوجدا) هناك عند انسياب السمكة(عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا) أي فضلاً ـ فإن الفضل رحمة من عنده سبحانه ـ(وعلّمناه من لدنّا علماً) علماً لدنياً بدون حاجة إلى التعليم وكان ذلك العبد خضرﷺ ـ(قال له موسى هل أتبعك) يا خضر!(على أن تعلمني مما علّمت رشداً) أي من العلوم الرشيدة، التي لها رشد ونموّ.

(قال) الخضر:(إنك) يا موسى(لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً)؟ فإنك لا تقدر أن ترى أعمالاً لا تعرف وجه الجواز فيها(قال) موسىﷺ:(ستجدني) يا خضر!(إن شاء الله صابراً) لما تعمل(ولا أعصي لك أمراً) فلا أخالفك فيما تأمرني به من الصبر.. وقد علّق موسىﷺ صبره بمشيئة الله تعالى، لكن الله لم يشأ، إذ لم يلق في نفسه العزيمة القوية على الصبر.

(قال) الخضرﷺ:(فإن اتبعتني) يا موسى!(فلا تسألني عن شيء) تراه(حتى أحدث لك منه ذكراً) في المستقبل بأن أبين سبب أعمالي لك.

وعلى هذا القرار، أخذا يسيران(فانطلقا) موسى والخضرﷺ(حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) أي ثقب الخضر السفينة.

(قال) موسى عليه السلام:(أخرقتها لتغرق أهلها)؟ لكن الخضر كان إذا خرق موضعاً، جعل في مكانه ثوباً أو ما أشبه، ليقف أمام الماء(لقد جئت) يا خضر!(شيئاً إمراً) أي منكراً غير مألوف.

(قال) الخضر:(ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً)؟ عرف موسى أنه تعجّل في الأمر، ممّا لا ينبغي له ذلك، فاعتذر، وقال:(لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني) أي لا تكلّفني(من أمري عسراً) بأن تكلّفني ما فيه المشقّة علي. قبل الخضر كلام موسى عليه السلام واعتذاره(فانطلقا حتى إذا لقيا) موسى والخضر(غلاماً فقتله) الخضر.

(قال) موسى عليه السلام معترضاً على هذه القتلة بدون سبب ظاهر:(أقتلت) يا خضر!(نفساً زكية) طاهرة عن الآثام(بغير نفس) أي بدون أن يكون قتل الغلام نفساً حتى يستحق القصاص؟(لقد جئت) يا خضر(شيئاً نكراً) أي منكراً غير معتاد.

(قال) الخضر:(ألم أقل لك) يا موسى(إنّك لن تستطيع معي صبراً)؟

لكن موسى اعتذر ثانياً(قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) واترك صحبتي(قد بلغت) يا خضر(من لدنّي عذراً) أي قد أعذرت فيما بيني وبينك.

(فانطلقا) موسى والخضر يمشيان(حتى إذا أتيا أهل قريةٍ) قيل: هي قريةُ ناصرة(استطعما أهلها) طلبا منهم الطعام(فأبوا) أي أهل القرية(أن يضيّفوهما) يقبلوهما ضيفين،(فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ) أي يسقط، وكان مائلاً للانهدام،(فأقامه) الخضر ورمّمه.

(قال) موسى عليه السلام:(لو شئت) يا خضر أن تعمل هذا العمل(لاتّخذت عليه أجراً) حتى ننتفع بأجره.

(قال) الخضر عليه السلام: يا موسى!(هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) ولماذا فعلت الأشياء التي فعلتها..

(أما السفينة) التي خرقتها(فكانت لمساكين يعملون في البحر) يتعيّشون بهذه السفينة،(فأردت أن أعيبها) بقلع بعض ألواحها ليتخلّى عنها الملك الغاصب فيها، وتبقى لأصحابها(وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كل سفينة) صالحة(غصباً).

(وأما الغلام) الذي قتلته، بلا ذنب ظاهرٍ(فكان أبواه مؤمنين فخشينا) إن بقي في الحياة(أن يرهقهما) أي يسبب لأبويه(طغياناً كبيراً) وقد كان الخضر عليه السلام علم بذلك،(فأردنا) بقتل الغلام (أن يبدلهما) أي يعوض للأبوين(ربّهما خيراً منه) أي من هذا الغلام(زكاةً) أي طهارةً(وأقرب رحماً) أي أرحم بالأبوين، وكان هذا إخبار من

الخضر عليه السلام بإرادة الله تعالى.

(وأمّا الجدار) الذي أقمته(فكان لغلامين يتيمين في المدينة) أي في المدينة التي استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما(وكان تحته كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحاً) فدفن هذا الكنز للغلامين(فأراد ربك أن يبلغا) أي الغلامان(أشدهما) أي قوتهما بأن يكبرا ويبلغا،(ويستخرجا كنزهما) فلو سقط الجدار حرما من الكنز، لذهاب الأثر بسقوط الجدار(رحمةً من ربك) بهما(وما فعلته) أي الأمور الثلاثة(عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً).

ثم فارق الخضر موسى عليهما السلام، وذهب كلّ واحدٍ منهما في طريقه الخاص به.

***

لقد لقي موسى عليه السلام من بني إسرائيل كل عنت وإرهاق، طول حياته، وقد كانت حياة موسى عليه السلام حياة حافلةً بالمتاعب والغرائب، من قبل الولادة إلى حين الممات، وقد خلّف عليه الصلاة والسلام بعده أمّةً عجيبةً غريبةً، هم اليـهود، وهؤلاء وإن كذبوا في نسبتهـم إلى هذا النبي العظيم، فإن موسى منهم براء، إلا أنّهم ـ على كل حال محسوبون عليه ـ.

وأخيراً مات موسى عليه السلام في (التيه) ودفن هنالك.. كما أن أخاه هارون عليه السلام مات في التيه أيضاً، ودفن فيه.

وفي قصّة هذا النبي العظيم أعظم عبرةٍ لمن أراد الاعتبار. وهذه القصّة، منذ زمان موسى إلى هذا اليوم، من أضخم القصص العالميّة، وفيها ألوان من الحركة والحياة، والمناقضات والأضداد.

وقد اختصرنا القصة ـ في هذا الكتاب ـ ليقرأها من لا يتمكّن من الرجوع إلى الكتب المفصّلة.(١).



❊❊❊❊❊❊

(١) القصص الحق.

غزوة احد

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ـ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ـ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ـ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ ـ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ـ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ـ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ـ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ـ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

غير أن الاضطرار قد يكلّف الإنسان رهقاً.

***

قرر موسى ـ حسب أمر الله تعالى ـ الهجرة من مصر مع بني إسرائيل أجمع، ويا له من قرار خطير!

ثم هل يمكنهم الفرار من يد الطاغية فرعون، وهو يرصدهم، ويبغي لهم الغوائل؟ لكن قدرة الله تعالى أكبر من كل شيء وتدبيره أحسن من كل تدبير، لقد أفجع سبحانه آل فرعون بنفوس أعزّائهم، فمات كثيرٌ منهم، مما أشغل بالهم، وأخذوا في النّواح والنّدبة لأعزائهم.

وهنا حان الوقت ليفرّ بنو إسرائيل من مصر، حين اشتغال القبط بأنفسهم وكان الذين يريدون الفرار، يقاربون ثلاثة أرباع المليون، وفي ليلة الميعاد المقرّر خرج هذا الجمع الغفير، تحت ظلام الليل، وأسرعوا من المدينة مع موسى وهارون أحدهما يقود الجمع، والآخر يسوقهم، لئلا يفرط منهم، ولا يسير أحد بدون قيادة.

وهكذا ساروا بكل سرعة وهدوء، حذرين خائفين، وإن جاسوساً واحداً لفرعون يكفي لإدراك الطلب.

وهل من الممكن أن يسير الجمع الكثير بدون أن ينتبه قبطي واحد؟ وهل من الممكن الإفلات من قبضة فرعون الحديدية، الذي

كان يعتبر هؤلاء ـ إن ظفر بهم ـ عبيداً آبقين؟

وفي أثناء السير ـ والذعر قد أخذ منهم كل مأخذ ـ إذا بهم يصطدمون بالبحر يا لها من مفاجأة! ماذا يصنعون؟ هل يرجعون أو يبقون؟ وكلا الأمرين فيه خطرٌ وأي خطر؟ لا بد وأن يدركهم فرعون، وهناك العذاب والتنكيل.

* * *

لمّا رأوا البحر أمامهم،(قال أصحاب موسى إنا لمدركون) يدركنا فرعون وجنوده.

(قال) موسى:(كلاّ إن معي ربّي) يحفظني، ولا يكلني إلى الأعداء فـ(سيهدين) طريق الخلاص ممّا أمامنا من البحر، وممّا وراءنا من فرعون.

وهنا جاءتهم النجدة من الله تعالى، فأوحى إلى موسى:(فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى) فضرب موسى عليه السلام عصاه بالبحر، فانجاب الماء، وظهرت في البحر طريقٌ، وكان طول البحر الذي يلزمهم عبوره(أربعة فراسخ) فيا للهول، وقف الماء كأنه جمد، في حافتي الطريق، وفي الوسط طريق لاحب.

خاف أصحاب موسى من العبور قائلين: كيف نعبر في الوحل؟

فأرسل الله الرياح، وأشرقت الشمس في الطريق فيبست، ثم ماذا؟

قال أصحاب موسى: إنا لا نعبر في طريق واحد، ونحن اثنتا عشرة قبيلة، فمن يتقدم ومن يتأخَر؟

فضرب موسى عصاه بالبحر حتى صار اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق والماء بين الطرق كالحاجز.. وهل من عذرٍ بعد؟

نعم.. قالوا لموسى كيف نعبر وبعض الأسباط لا يرى السبط الآخر، ولعل أذى يصيبه، لأن الماء حاجز بين الطرق؟

ورحابة صدر موسى العظيم تقبل حتى هذا العذر التافه، ويجعل له حلاً، إذ أشار موسى بـعصاه فصارت الحواجز كأنها شبابيك، يتمكن كل سبط أن يرى سائر الأسباط طول الطريق.

* * *

(انفلق) الماء ببركة عصا موسى(فكان كل فرق كالطود) أي الجبل العظيم فانسابت القبائل في الطريق المهول، إن الأرض جافةٌ، والشمس مشرقةٌ عليهم، وهم كثرةٌ هائلة، يحدث بعضهم بعضاً، وكلّهم مطمئنّ والقلب بحكمة القائد والسائق، واثقين بوعد الله ولطفه.

ولكن هل يبعث ذلك كله الاطمئنان الكامل؟ كيف والماء ماء،

هزيمة عظيمة، وأقبلوا يصعدون في الجبال وفي كل وجه. فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله الهزيمة كشف البيضة عن رأسه وقال: إلي أنا رسول الله إلى أين تفرون عن الله وعن رسوله؟ وكانت هند بنت عتبة في وسط العسكر فكلما انهزم رجل من قريش دفعت إليه ميلا ومكحلة، وقالت: إنما أنت امرأة فاكتحل بهذا. وكان حمزة بن عبد المطلب يحمل على القوم فإذا رأوه انهزموا ولم يثبت له أحد، وكانت هند قد أعطت وحشيا عهدا لئن قتلت محمدا أو عليا أو حمزة لأعطينك كذا وكذا، وكان وحشي عبدا لجبير بن مطعم حبشيا فقال وحشي: أما محمد فلم أقدر عليه، وأما علي فرأيته حذرا كثير الالتفات فلا مطمع فيه، فكمنت لحمزة فرأيته يهد الناس هدا فمر بي فوطىء على جرف نهر فسقط، وأخذت حربتي فهززتها ورميته بها فوقعت في خاصرته وخرجت من ثنته فسقط فأتيته فشققت بطنه، وأخذت كبده، وجئت به إلى هند فقلت هذه كبد حمزة، فأخذتها في فمها فلاكتها فجعله الله في فمها مثل الداعضة وهي عظم رأس الركبة فلفظتها ورمت بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فبعث الله ملكا فحمله ورده إلى موضعه

قال: فجاءت إليه فقطعت مذاكيره، وقطعت أذنيه، وقطعت يده ورجله ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أبو دجانة سماك بن خرشة وعلي، فكلما حملت طائفة على رسول الله استقبلهم علي فدفعهم عنه حتى تقطع سيفه فدفع إليه رسول الله صلى الله عليه وآله سيفه ذا الفقار، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ناحية أحد فوقف فلم يزل علي عليه السلام يقاتلهم حتى أصابه في رأسه ووجهه وبدنه وبطنه ورجليه سبعون جراحة، كذا أورده علي بن إبراهيم في تفسيره فقال جبرائيل: إن هذه لهي المواساة يا محمد، فقال محمد صلى الله عليه وآله إنه مني وأنا منه فقال جبرائيل: وأنا منكما. قال أبو عبد الله: نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جبرائيل بين السماء والأرض على كرسي من ذهب وهو يقول: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي.

وفي رواية القمي وبقيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله نسيبة بنت كعب المازنية وكانت تخرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله في غزواته تداوي الجرحى وكان ابنها معها فأراد أن ينهزم ويتراجع فحملت عليه وقالت: يا بني إلى أين تفر عن الله وعن رسوله، فردته فحمل عليه رجل فقتله، فأخذت سيف ابنها فحملت على الرجل فضربته

على فخذه فقتلته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بارك الله فيك يا نسيبة، وكانت تقي رسول الله بصدرها وثدييها حتى أصابتها جراحات كثيرة. وحمل ابن قمئة على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: أروني محمدا لا نجوت إن نجا، فضربه على حبل عاتقه، ونادى: قتلت محمدا واللات والعزى.

وعلق صاحب الميزان على القصة بما يلي:

أقول: وفي القصة روايات أخر ربما تخالف هذه الرواية في بعض فقراتها.

منها: ما في هذه الرواية أن عدة المشركين كانت خمسة آلاف فإن غالب الروايات أنهم كانوا ثلاثة آلاف رجل.

ومنها: ما فيها أن علياً عليه السلام قتل حاملي الراية وهم تسعة ويوافقها فيه روايات أخر، ورواه ابن الأثير في الكامل عن أبي رافع، وبقية الروايات تنسب قتل بعضهم إلى غيره عليه السلام والتدبر في القصة يؤيد ما في هذه الرواية.

ومنها: ما فيها أن هندا أعطت وحشيا عهدا في قتل حمزة فإن

المفسدين) لا، لا، لا ينفع مثل هذا الإيمان في النجاة من عذاب الآخرة، وضرب على فمه بكتلةٍ من (الحماة).

لكن هل يلفّ البحر جسد فرعون؟ كلا! إن الناس اعتادوا أن يزعموا بقاء العظماء والمتجبّرين على حد سواء، ولذا ظنّ بنو إسرائيل الذين ملأ قلوبهم جبروت فرعون: أنه لم يمت ولم يغرق، وهكذا زعمت البقية الباقية من القبط الذين لم يخرجوا مع فرعون لإدراك موسى.

ولذا أبقى الله جسد فرعون قائلاً: (فاليوم ننجيك ببدنك) بعد إزهاق روحك (لتكون لمن خلفك آية) وعلامة على هلاكك، وأنك لم تكن ربّاً ـ كما كنت تقول ـ وهل يغرق الرب؟

* * *

لقد غرق فرعون وآل فرعون، و(كم تركوا من جنّات) بساتين ونخيل،(وعيون) مياه جارية،(وزروع ومقام كريم) من قصور وبيوت ومساكن،(ونعمة كانوا فيها فاكهين) بكلّ سلام ودعة (كذلك وأورثناها قوماً آخرين) من بني إسرائيل وغيرهم.

ومن طريف ما يحكى: أن امرأة من بني إسرائيل لما عبروا البحر، جلست على الماء تغسل بعض حاجاتها، وإذا بها ترى جثّة فرعون، وضربها الماء حتى أتت الجثّة قرب المرأة، فأخذت المرأة تقتطع

هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أكلت شيئا؟ قالوا: لا قال: ما كان الله ليدخل شيئا من حمزة النار، الحديث.

وفي روايات أصحابنا وغيرهم: أن رسول الله صلى الله عليه وآله أصيب يومئذ بشجة في جبهته، وكسرت رباعيته: واشتكت ثنيته رواه مغيرة.

****

وفي الدر المنثور، أخرج ابن إسحاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن شهاب، ومحمد بن يحيى بن حيان، وعاصم بن عمرو بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، وغيرهم كل قد حدث بعض الحديث عن يوم أحد.

قالوا: لما أصيب قريش أو من ناله منهم يوم بدر من كفار قريش ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر

فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا بمن أصاب، ففعلوا فأجمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وآله وخرجت بجدتها وجديدها، وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة ولئلا يفروا، وخرج أبو سفيان وهو قائد الناس فأقبلوا حتى نزلوا بعينين جبل ببطن السنجة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة.

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون بالمشركين قد نزلوا حيث نزلوا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إني رأيت بقرا تنحر، ورأيت في ذباب سيفي ثلما، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا المدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها.

ونزلت قريش منزلها أحدا يوم الأربعاء فأقاموا ذلك اليوم ويوم الخميس ويوم الجمعة، وراح رسول الله صلى الله عليه وآله حين صلى الجمعة فأصبح بالشعب من أحد فالتقوا يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث.

وكان رأي عبد الله بن أبي مع رأي رسول الله صلى الله عليه وآله يرى رأيه

والأنجم، حيث جنّهم الليل ـ وزاد خوفهما من الصعود أكثر.. فقلّبا وضع النسور واللحوم، بالبكرات والحبال التي كان هامان قد هيأها لمثل هذه المهمّة، إذ نقل النسور من الأساطين إلى القوائم، ونقل اللحوم من القوائم إلى الأساطين.

والنسور الجائعة، رأت اللحم في الأسفل فأخذت في الهبوط لتصل إليه سدّاً لجوعتها، وهكذا نزل المهد، ولم يظفر فرعون ببغيته.

لقد ذهب فرعون الطاغي، وذهب أتباعه وجلاوزته، وذهبت كنوزه وقصوره، وذهب صرحه الذي سخّر له العمال الكثيرين، ليطّلع إلى إله موسى ويشاطره ـ بزعمه ـ الملك والحكم!

ورجع البحر رهواً كما كان، كأنه لم يخو في بطنه شيئاً من ذلك الجيش اللّجب، بعدده وأسلحته ومعدّاته. ولم يبق إلا جثّة فرعون الهامدة، على رابية قرب البحر حيث قذفته الأمواج(ليكون لمن خلفه آيةً) وعبرة، يعتبر به الجبابرة.

ويقال إن إحدى جثث الفراعنة الموجودة في متحف القاهرة هي جثّة هذا الرجل الطاغي، وسواء كان الخبر صدقاً أم مخالفاً للواقع، فقد لفت فرعون وقومه لعنة الأبد، وبقي أمثولةً للاستبداد والكبر، حتى إن الناس اشتقّوا لفظة(تفرعن) من اسمه أي طغى وتجبّر.

وبقي موسى عليه السلام وقومه المؤمنون الصابرون، مثلاً أعلى لكل فضيلة.

* * *

لقد عبّر بنو إسرائيل البحر في سلام، وهاهم يرون أمام أعينهم غرق ألدّ أعدائهم، والمعاونين له في إيذائهم، فقد انقضى كلّ شيء، وانتهى أمر فرعون.

فلننظر إلى موسى وقومه..

فمن غريب الأمر أن يكون بنو إسرائيل، بعد هذا الاضطهاد والاستعباد، وبعد تلك المعجزات والغرائب، لم تتبلور في نفوسهم روحيّة التوحيد، فإنهم بعد ما خرجوا من البحر،(أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)! وماذا يقول موسى العظيم لهؤلاء القوم؟(قال موسى إنكم قوم تجهلون) وهل بعد هذه الآيات محلٌ للكلام؟ لكن قد أُشرِب في قلب جماعة منهم حب الأوثان أليسوا قد عبدوا العجل بعد مدة أخرى أيضاً؟

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى..

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) ينظر إليهم فرعون بنظر الضعف والمهانة(مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها) فقد

صارت أراضي مصر وأراضي سوريّا، تحت سلطة موسى وقومه.

(وتمّت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) فقد دمّر الله سبحانه قصور فرعون، وبالأخص صرحه الذي بناه له(هامان).

وذلك بأن ضرب جبرئيل(الصرح) بجناحه، فصار دكّاً ولم يبق منه أثر.

أما مصر: فبعد أن هلك فرعون، بعث موسى جندين عظيمين من بني إسرائيل كل جند اثنا عشر ألفاً، إلى مدائن فرعون ـ ولعل البعث كان بالسفن ـ وتلك المدائن كانت خالية من أهلها، لم يبق منهم إلا النساء والصبيان والزمنى والمرضى والهرمى.

وجعل الأمر على أحد الجندين(يوشع بن نون) وعلى الجند الآخر(كالب بن يوفنا) فدخلوا بلاد فرعون.

هاهي البلاد خالية! وها هومحل القوم الذين طالما عتوا وطغوا وبغوا في الأرض بغير حق! وهاهي قصور فرعون وبساتينه وحدائقه، خلت من الطاغية الذي سام هؤلاء أشدّ ألوان العذاب، فكان(يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم) تجاوب السوم في أرجائها، عوض المستبد العاتي الذي كان ينادي بملء فمه(أنا ربكم الأعلى) و(ما

بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب في جماعة من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وآله خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم. فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول فديننا خير أم دين محمد؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله فيهم ﴿أ لم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت - ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا إلى قوله وكفى بجهنم سعيرا﴾ فسر قريشا ما قالوا ونشطوا لما دعوهم إليه فأجمعوا لذلك واستعدوا له. ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وأخبروهم أنهم سيكونون عليه وأن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم. فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في فزارة والحارث بن عوف في بني مرة ومسعر بن جبلة الأشجعي فيمن تابعه من الأشجع وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل

البلاد يستطيع أن يرحب بمثل هذه الكثرة العظيمة؟ وكيف يتمكّنون من أن يعيشوا في بلاد غربةٍ بدون مؤهلات؟ إنها مشكلة كبرى لهم، وللبلد الذي ينزلون فيه، ولقائدهم موسى بن عمران عليه السلام الذي لابد وأن يلاقي الصعوبة من قومه ومن أهل ذلك البلد الذين يريدون النزول فيه.

ولا يتمكّنون من أن يعيشوا في برّيّة.. إذن فما العلاج؟

لقد حل الله المشكلة، فأوحى إلى موسى أن ينحو نحو الأرض المقدسة، أرض الشام، التي قدّست وبوركت بكثرة الأنبياء، وبكثرة الفاكهة والمياه، وطيب الهواء.

وكان ذلك في نفس الوقت حلاً لمشكلتين: مشكلة هؤلاء النازحين، الذين يحدو بهم السير نحو بلاد يعيشون فيها آمنين، يؤدّون شعائرهم بكل حرّية، ويعبدون الله جهاراً، بلا خوف ولا رقابة.. ومشكلة الكفّار الذين كانوا في(الشام) وكانوا إخوان(فرعون) في العقيدة والعمل، فقد كان العمالقة الساكنون في(الشام) كفّاراً عتاةً يفسدون ويظلمون ويبغون في الأرض بغير الحق.

أما إذا جاء موسى وبنو إسرائيل وأخضعوهم، فإن صبغة البلاد تنقلب من الكفر إلى الايمان، ومن الطغيان إلى العدل.

أمّا.. لماذا لم يصمّم بنو إسرائيل على الرجوع إلى (مصر) مقرّهم، بعد هلاك عدوّهم؟ فكان ذلك بأمر الله الذي أراد لهم أن يسكنوا الأرض المقدّسة، ولعلّ الغرض من ذلك كان إرادة تطهيرها من الوثنية وعبادة الطاغوت، وقطع يد الظالمين عنها.

* * *

نزل قوم موسى عند نهر الأردن، وكان من المقرر أن يواصلوا السير حتى يصلوا إلى الشام، لكنهم خانوا وتردّدوا، أمّا موسى فلم يتردد، بل خاطبهم قائلاً: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) أن تدخلوها (ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) بعدم إطاعة أوامر الله، فإن ذلك يوجب خسران الدنيا والآخرة.

لكن القوم بقوا على عنادهم، فـ(قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين) هم العمالقة الذين كانوا أقوياء في البنية، أشدّاء، منحرفي العقيدة والعمل (وإنا لن ندخلها) إذ نخاف أن تكون نساؤنا وأطفالنا غنيمة باردةً لهم، ونقع في أسرهم كما كنا في أسر فرعون من ذي قبل (حتى يخرجوا) أي العمالقة (منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون).

وقد همّ جماعة من بني إسرائيل بالانصراف إلى مصر، ثم إن موسى بعث من كل سبط من الأسباط الاثني عشر، رجلاً، ليروا وضع

الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وقال المنافقون: ألا تعجبون؟ يحدثكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر في يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا.

ومما ظهر فيه أيضا من آيات النبوة ما رواه أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن عبد الواحد بن أيمن المخزومي قال حدثني، أيمن المخزومي قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: كنا يوم الخندق نحفر الخندق فعرضت فيه كدية وهي الجبل فقلنا: يا رسول الله إن كدية عرضت فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله رشوا عليها ماء ثم قام وأتاها وبطنه معصوب الحجر من الجوع فأخذ المعول أو المسحاة فسمى ثلاثا ثم ضرب فعادت كثيبا أهيل فقلت: ائذن لي يا رسول الله إلى المنزل ففعل فقلت للمرأة هل عندك من شيء؟ فقالت: عندي صاع من شعير وعناق فطحنت الشعير فعجنته وذبحت العناق وسلختها وخليت بين المرأة وبين ذلك. ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فجلست عنده ساعة ثم قلت: ائذن لي يا رسول الله ففعل فأتيت المرأة فإذا العجين واللحم قد أمكنا فرجعت إلى رسول

الله صلى الله عليه وآله فقلت: إن عندنا طعيما لنا فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك فقال: وكم هو؟ فقلت: صاع من شعير وعناق فقال للمسلمين جميعا: قوموا إلى جابر فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله فقلت: جاء بالخلق إلى صاع شعير وعناق. فدخلت على المرأة وقلت قد افتضحت جاءك رسول الله صلى الله عليه وآله بالخلق أجمعين فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ قلت: نعم. فقالت: الله ورسوله أعلم قد أخبرناه ما عندنا فكشفت عني غما شديدا. فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: خذي ودعيني من اللحم فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يثرد ويفرق اللحم ثم يحم هذا ويحم هذا فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كلي وأهدي فلم نزل نأكل ونهدي قومنا أجمع أورده البخاري في الصحيح. قالوا: ولما فرغ رسول الله من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بين الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون حتى جعلوا

ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب بني قريظة وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك فلما سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه. فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه يا كعب افتح لي فقال: ويحك يا حيي إنك رجل مشئوم، إني قد عاهدت محمدا ولست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا. قال: ويحك افتح لي حتى أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: إن أغلقت دوني إلا على جشيشة تكره أن آكل منها معك. فأحفظ الرجل ففتح له فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان على سادتها وقادتها قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه. فقال كعب: جئتني والله بذل الدهر بجهام قد أهراق ماءه يرعد ويبرق وليس فيه شيء فدعني ومحمدا وما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء. فلم يزل حيي بكعب يفتل منه في الذروة والغارب

فما يتراءى من بعض الذين انهزموا أمام التيارات الإلحادية ـ التي لا تؤمن بالإعجاز ـ من تأويل كلّ معجزة بأمور طبيعية، شطط في القول، وتناقض في التفكير، في فرق بين الإعجاز بالوحي على الرسول، وبين الإعجاز بالتيه في الأرض، أو ضرب العصا بالبحر الموجب لانفلاقه؟

وإن قبلنا الرسالة يلزم أن نقبل كل توابعها، وإن لم نقبل التوابع، فما هو الفارق بين الأمرين؟

فلندع بني إسرائيل في التيه، لنرى إلى ماذا انتهى أمرهم وأمر موسى عليه السلام وكيف عاشوا في التيه هذه المدة الطويلة؟

بساط سليمان عليه السلام

كان داود من أنبياء الله تعالى، وكان بيده السلطة الزمنية، كما أن بيده السلطة الدينية، وكان يقضي بين الناس بالحق، فقد قال الله تعالى:(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق).

مرّت أزمنةٌ على ذلك، لكن داود كان تعلّم أنه لابد وأن يموت فعليه أن يخلّف أحداً مكانه ليقوم مقامه في هداية الضالّ، وتعليم

الجاهل، وإرشاد الغافل، وإقامة الأحكام، ليبقى الدين قائماً.

وكيف يمكن أن يذهب عن أمته بدون أن يُعين خليفةً له من بعده.

وذات مرّة أوحى الله تعالى إليه بان يخلّف على الأمّة ابنه(سليمان)، وكان سليمان عليه السلام في ذلك الوقت غلاماً حدث السنّ، لكنه كان أهلاً للخلافة لمكانته الدينية وفضله وتقواه، وذكائه، وفطنته، ومعرفته الحق من الباطل، والحلال من الحرام.

وقد اختار الله (سليمان) خليفة لداود، حيث علم سبحانه أن (سليمان) أهلاً لذلك، ولم يكن لداود أن يختار لنفسه خليفةً بدون إذن الله تعالى، فإن الخلافة للأنبياء، كالنبوّة لا تكون إلا بتعيين الله تعالى.

وطبيعي أن يفرح(داود) لهذا الوحي الإلهي، الموجب لامتداد النبوة والقدرة في بيته.. لكنه من الطبيعي أيضا أن يخاف إنكار أصحابه وشيوخ بني إسرائيل لخلافة ولده، وهل يرضى الشيوخ أن ينضووا تحت لواء غلام؟ وإن كان له من الفضل والنبل الشي الكثير، إضافة إلى أن الحسد داءٌ قلّما يسلم منه إنسان عادي.

* * *

وأخيراً.. أخبر(داود) بني إسرائيل بأمر الله تعالى، وأنه سبحانه جعل خليفته فيهم(سليمان).

مشهده، وكان يعد بألف فارس وكان يسمى فارس يليل لأنه أقبل في ركب من قريش حتى إذا كانوا بيليل وهو واد قريب من بدر عرضت لهم بنو بكر في عدد فقال لأصحابه: امضوا فمضوا فقام في وجوه بني بكر حتى منعهم أن يصلوا إليه فعرف بذلك. وكان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق المذاد وكان أول من طفره عمرو وأصحابه فقيل في ذلك. عمرو بن عبد كان أول فارس جزع المذاد وكان فارس يليل. وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن عبد ود ـ كان ينادي: من يبارز؟ فقام علي وهو مقنع في الحديد - فقال: أنا له يا نبي الله، فقال: إنه عمرو اجلس.

ونادى عمرو: أ لا رجل؟ وهو يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟ وقام علي فقال: أنا له يا رسول الله.

ثم نادى الثالثة فقال: ولقد بححت عن النداء - بجمعكم هل من مبارز؟ ووقفت إذ جبن المشجع ـ موقف البطل المناجز إن السماحة والشجاعة في ـ الفتى خير الغرائز فقام علي فقال: يا رسول الله أنا له، فقال: إنه عمرو، فقال: وإن كان عمرا فاستأذن

رسول الله ﷺ فأذن له -.

قال ابن إسحاق: فمشى إليه وهو يقول: لا تعجلن فقد أتاك - مجيب صوتك غير عاجز ذو نية وبصيرة - والصدق منجي كل فائز إني لأرجو أن أقيم - عليك نائحة الجنائز من ضربة نجلاء يبقى - ذكرها عند الهزاهز قال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي.

قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

فقال: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك - فإني أكره أن أهريق دمك.

فقال علي: لكني والله ما أكره أن أهريق دمك.

فغضب عمرو ونزل وسل سيفه كأنه شعلة نار - ثم أقبل نحو علي مغضبا فاستقبله علي بدرقته فضربه عمرو بالدرقة فقدها - وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه علي على حبل العاتق فسقط.

وفي رواية حذيفة: وتسيف على رجليه بالسيف من أسفل

- فوقع على قفاه وثارت بينهما عجاجة - فسمع علي يكبر فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قتله والذي نفسي بيده - فكان أول من ابتدر العجاج عمرو بن الخطاب - وقال: يا رسول الله قتله فجز على رأسه - وأقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وآله ووجهه يتهلل.

قال حذيفة: فقال النبي صلى الله عليه وآله: أبشر يا علي - فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة محمد لرجح عملك بعملهم - وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المشركين - إلا وقد دخله وهن بقتل عمرو، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو.

وعن الحاكم أبي القاسم أيضا بالإسناد عن سفيان الثوري عن زبيد الثاني عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: كان يقرأ «و كفى الله المؤمنين القتال بعلي». وخرج أصحابه منهزمين حتى طفرت خيولهم الخندق وتبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبد العزى جوف الخندق فجعلوا يرمونه بالحجارة فقال لهم: قتلة أجمل من هذه ينزل بعضكم أقاتله فقتله الزبير بن العوام، وذكر ابن إسحاق: أن عليا طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق. وبعث المشركون إلى النبي صلى الله عليه وآله يشترون جيفته بعشرة آلاف

إن برودة العفو على قلب الإنسان، أحسن من برودة الثلج، وحلاوة المحبة في روح المرء أكثر من حلاوة السكر.

ولعل في سؤالي (داود) إلماعاً إلى وجوب تفشي (العفو) و(المحبة) بين الناس لتستقيم أمورهم، وتقوى الصلات والروابط بينهم.

****



وإنما جاءوا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم تستوثقون به أن لا يبرحوا حتى يناجزوا محمدا. فقالوا له: قد أشرت برأي. ثم ذهب فأتى أبا سفيان وأشراف قريش فقال: يا معشر قريش إنكم قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدا ودينه وإني قد جئتكم بنصيحة فاكتموا علي. فقالوا: نفعل ما أنت عندنا بمتهم. قال: تعلمون أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد فبعثوا إليه أنه لا يرضيك عنا إلا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك. فقال: بلى فإن بعثوا إليكم يسألونك نفرا من رجالكم فلا تعطوهم رجلا واحدا واحذروا. ثم جاء غطفان وقال: يا معشر غطفان إني رجل منكم، ثم قال لهم ما قال لقريش. فلما أصبح أبو سفيان وذلك يوم السبت في شوال سنة خمس من الهجرة بعث إليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش أن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر اليهود إن الكراع والخف قد هلكا

وإنا لسنا بدار مقام فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه. فبعثوا إليه أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم نستوثق بهم لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمدا فقال أبو سفيان: والله لقد حذرنا هذا نعيم فبعث إليهم أبو سفيان: أنا لا نعطيكم رجلا واحدا فإن شئتم أن تخرجوا وتقاتلوا وإن شئتم فاقعدوا، فقالت اليهود: هذا والله الذي قال لنا نعيم. فبعثوا إليهم أنا والله لا نقاتل حتى تعطونا رهنا، وخذل الله بينهم وبعث سبحانه عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد حتى انصرفوا راجعين. قال محمد بن كعب قال حذيفة بن اليمان والله لقد رأيتنا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلا الله وقام رسول الله ﷺ يصلي ما شاء الله من الليل ثم قال : ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنة. قال حذيفة: فوالله ما قام منا أحد مما بنا من الخوف والجهد والجوع، فلما لم يقم أحد دعاني فلم أجد بدا من إجابته. قلت: لبيك قال: اذهب فجيء بخبر القوم ولا تحدثن شيئا حتى ترجع. قال: وأتيت القوم فإذا ريح الله وجنوده تفعل بهم ما

تفعل ما يستمسك لهم بناء ولا تثبت لهم نار ولا يطمئن لهم قدر فإني لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله ثم قال: يا معشر قريش لينظر أحدكم من جليسه؟ قال حذيفة: فبدأت بالذي عن يميني فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان. ثم عاد أبو سفيان براحلته فقال: يا معشر قريش والله ما أنتم بدار مقام هلك الخف والحافر وأخلفتنا بنو قريظة وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء ثم عجل فركب راحلته وإنها لمعقولة ما حل عقالها إلا بعد ما ركبها. قال: قلت في نفسي: لو رميت عدو الله وقتلته كنت قد صنعت شيئا فوترت قوسي ثم وضعت السهم في كبد القوس وأنا أريد أن أرميه فأقتله فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وآله لا تحدثن شيئا حتى ترجع. قال فحططت القوس ثم رجعت إلى رسول الله وهو يصلي فلما سمع حسي فرج بين رجليه فدخلت تحته، وأرسل على طائفة من مرطة فركع وسجد ثم قال: ما الخبر؟ فأخبرته. وعن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله حين أجلي عنه الأحزاب: الآن نغزوهم ولا يغزوننا فكان كما قال فلم يغزهم قريش بعد ذلك وكان هو يغزوهم حتى فتح الله عليهم مكة.

وينشر في الأرض التوحيد، ويأخذ للمظلوم من الظالم.

أما بساط سليمان فهو شيء عجيب، لا تبلغه أكبر الطائرات والصواريخ المكتشفة في زماننا هذا. فكان يجلس أحياناً على بساطه، وعن يمينه ثلاثمائة ألف كرسي عليها الإنس، وعن يساره ثلاثمائة ألف كرسي عليها الجن، وكانت تأتي الطيور فتصفّ بأجنحتها على ذلك البساط الممتد حتى لا يؤذيها حر الشمس، ثم يرتفع هذا البساط المهيب في أجواء السماء.

******

كاشفة عن ذراعيها عليها من كل زينة الدنيا فقالت يا محمد أنظرني حتى أكلمك فلم ألتفت إليها ثم سرت فسمعت صوتا أفزعني فجاوزت فنزل بي جبرئيل فقال صل فصليت فقال تدري أين صليت قلت لا، فقال صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى تكليما ثم ركبت فمضينا ما شاء الله ثم قال لي انزل فصل فنزلت وصليت فقال لي تدري أين صليت فقلت لا قال: صليت في بيت لحم وبيت لحم بناحية بيت المقدس حيث ولد عيسى بن مريم، ثم ركبت فمضينا حتى انتهينا إلى بيت المقدس فربطت البراق بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها فدخلت المسجد ومعي جبرئيل إلى جنبي فوجدنا إبراهيم وموسى وعيسى فيمن شاء الله من أنبياء الله عليهم السلام فقد جمعوا إلي وأقيمت الصلاة ولا أشك إلا وجبرئيل سيتقدمنا فلما استووا أخذ جبرئيل بعضدي فقدمني وأممتهم ولا فخر. ثم أتاني الخازن بثلاثة أواني إناء فيه لبن وإناء فيه ماء وإناء فيه خمر وسمعت قائلا يقول: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته وإن أخذ الخمر غوى وغويت أمته وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمته قال: فأخذت اللبن وشربت

منه فقال لي جبرئيل هديت وهديت أمتك. ثم قال لي ماذا رأيت في مسيرك؟ فقلت ناداني مناد عن يميني فقال أو أجبته فقلت لا ولم ألتفت إليه فقال داعي اليهود لو أجبته لتهودت أمتك من بعدك ثم قال ما ذا رأيت؟ فقلت ناداني مناد عن يساري فقال لي أو أجبته؟ فقلت لا ولم ألتفت إليه فقال: ذاك داعي النصارى ولو أجبته لتنصرت أمتك من بعدك. ثم قال ماذا استقبلك؟ فقلت لقيت امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كل زينة الدنيا فقالت: يا محمد أنظرني حتى أكلمك. فقال: أو كلمتها؟ فقلت لم أكلمها ولم ألتفت إليها فقال: تلك الدنيا ولو كلمتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة. ثم سمعت صوتا أفزعني، فقال لي جبرئيل: أتسمع يا محمد؟ قلت نعم قال: هذه صخرة قذفتها عن شفير جهنم منذ سبعين عاما فهذا حين استقرت قالوا فما ضحك رسول الله صلى الله عليه وآله حتى قبض. قال فصعد جبرئيل وصعدت معه إلى السماء الدنيا وعليها ملك يقال له إسماعيل وهو صاحب الخطفة التي قال الله عز وجل: «إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب» وتحته سبعون ألف ملك تحت كل ملك سبعون

ألف ملك. فقال يا جبرئيل! من هذا الذي معك؟ فقال محمد رسول الله قال وقد بعث؟ قال نعم ففتح الباب فسلمت عليه وسلم علي واستغفرت له واستغفر لي وقال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، وتلقتني الملائكة حتى دخلت السماء الدنيا فما لقيني ملك إلا ضاحكا مستبشرا حتى لقيني ملك من الملائكة لم أر أعظم خلقا منه كريه المنظر ظاهر الغضب فقال لي مثل ما قالوا من الدعاء إلا أنه لم يضحك ولم أر فيه من الاستبشار ما رأيت من ضحك الملائكة فقلت: من هذا يا جبرئيل فإني قد فزعت منه؟ فقال: يجوز أن يفزع منه فكلنا نفزع منه إن هذا مالك خازن النار لم يضحك قط، ولم يزل منذ أن ولاه الله جهنم يزداد كل يوم غضبا وغيظا على أعداء الله وأهل معصيته فينتقم الله به منهم، ولو ضحك إلى أحد قبلك أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك لضحك إليك فسلمت عليه فرد السلام علي وبشرني بالجنة. فقلت لجبرئيل وجبرئيل بالمكان الذي وصفه الله «مطاع ثم أمين»: ألا تأمره أن يريني النار فقال له جبرئيل: يا مالك أر محمدا النار فكشف عنها غطاءها وفتح بابا منها فخرج منها لهب

ساطع في السماء وفارت وارتفعت حتى ظننت ليتناولني مما رأيت فقلت: يا جبرئيل! قل له فليرد عليها غطاءها فأمره فقال لها: ارجعي فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه. ثم مضيت فرأيت رجلا آدما جسيما فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أبوك آدم فإذا هو يعرض عليه ذريته فيقول: روح طيبة وريح طيبة من جسد طيب ثم تلا رسول الله ﷺ سورة المطففين على رأس سبع عشرة آية ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين - وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون﴾ إلى آخرها قال: فسلمت على أبي آدم وسلم علي واستغفرت له واستغفر لي، وقال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح المبعوث في الزمن الصالح. قال: ثم مررت بملك من الملائكة جالس على مجلس وإذا جميع الدنيا بين ركبتيه وإذا بيده لوح من نور ينظر فيه مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لا يلتفت يمينا ولا شمالا، مقبلا عليه كهيئة الحزين فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ قال: هذا ملك الموت دائب في قبض الأرواح فقلت: يا جبرئيل أدنني منه حتى أكلمه فأدناني منه فسلمت عليه، وقال له جبرئيل: هذا محمد نبي

وفي يوم من الأيام كان سليمان عليه السلام جالساً مع أصحابه، فصاحت الطيور، ففسر كلامها لأصحابه، حتى يعلموا أن كل طير يقول قولاً، وليست صيحات الطيور أصواتاً فارغة.

صاح(ورشان) فقال سليمان: يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب.

وصاحت(فاختة) فقال سليمان: تقول: ليت الخلق لم يخلقوا.

وصاح(طاووس) فقال سليمان: يقول: كما تدين تدان.

وصاح(هدهد) فقال سليمان: يقول: من لا يَرحم لا يُرحم.

وصاح(صرد) فقال سليمان: يقول: استغفروا الله يا مذنبين.

وصاح(طوطن) فقال سليمان: يقول: كل حي ميّت، وكلّ جديد بال.

وصاح(خطّاف) فقال سليمان: يقول: قدّموا ضراً تجدوه.

وهدلت(حمامةٌ) فقال سليمان: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سماواته وأرضه.

وصاح(قمري) فقال سليمان: يقول: سبحان ربي الأعلى.

ثم.. إن سليمان عليه السلام، نشر لأصحابه كلام بعض الطيور الأخرى التي لم تكن حاضرة فقال عليه السلام:

من الملائكة جعل الله أمره عجيبا نصف جسده النار والنصف الآخر ثلج فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج تطفىء النار وهو ينادي بصوت رفيع ويقول: سبحان الذي كف حر هذه النار فلا تذيب الثلج وكف برد هذا الثلج فلا يطفىء حر هذه النار اللهم يا مؤلف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين فقلت من هذا يا جبرئيل؟ فقال هذا ملك وكله الله بأكناف السماء وأطراف الأرضين وهو أنصح ملائكة الله لأهل الأرض من عباده المؤمنين يدعو لهم بما تسمع منذ خلق. ورأيت ملكين يناديان في السماء أحدهما يقول: اللهم أعط كل منفق خلفا والآخر يقول: اللهم أعط كل ممسك تلفا. ثم مضيت فإذا أنا بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل يقرض اللحم من جنوبهم ويلقى في أفواههم فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الهمازون اللمازون. ثم مضيت فإذا أنا بأقوام ترضخ رءوسهم بالصخر فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الذين ينامون عن صلاة العشاء. ثم مضيت فإذا أنا بأقوام تقذف النار في أفواههم وتخرج من أدبارهم فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء

الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا. ثم مضيت فإذا أنا بأقوام يريد أحدهم أن يقوم فلا يدر من عظم بطنه فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. وإذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا يقولون ربنا متى تقوم الساعة؟. قال: ثم مضيت فإذا أنا بنسوان معلقات بثديهن فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل فقال: هؤلاء اللواتي يورثن أموال أزواجهن أولاد غيرهم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم في نسبهم من ليس منهم فاطلع على عوراتهم وأكل خزائنهم. ثم قال: مررنا بملائكة من ملائكة الله عز وجل خلقهم الله كيف شاء ووضع وجوههم كيف شاء، ليس شيء من أطباق أجسادهم إلا وهو يسبح الله ويحمده من كل ناحية بأصوات مختلفة أصواتهم مرتفعة بالتحميد والبكاء من خشية الله فسألت جبرئيل عنهم فقال: كما ترى خلقوا إن الملك منهم إلى جنب صاحبه ما كلمهم كلمة قط ولا رفعوا رءوسهم إلى ما فوقها ولا خفضوها

إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم).

كما أن فيها عبرة للإنسان وذكرى له: إنه لا ينبغي للحريص أن يعصي الله تعالى لتحصيل رزقه، كما يكون بعض الناس هكذا يرابون، ويغشون، ويسرقون، ويحتكرون، ويأكلون أموال الناس ظلماً، ويمنعون حقوق الله عدواناً.. كل ذلك ظنّاً منهم أن تلك الأعمال هي التي توفر لهم المعيشة، وهي التي تهيئ لهم الرزق.

ولذا قال القرآن الحكيم، تنديداً بهم:(إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين). إن من لا ينسى دودة عمياء في جوف صخرة صمّاء، تحت مياه ظلماء، كيف ينسى الإنسان؟ وهل يمكن أن يحتاج الإنسان، لرزقه، إلى عمل الحرام؟ كلا فمن خلق الإنسان يعطي ويرزق.

* * *

لقد كان(لسليمان الريح عاصفة) فكانت تعصف لتحمل بساط سليمان إلى حيث يشاء، فكانت الريح(تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) أي جعلنا فيها البركة بإرسال الأنبياء، وبكثرة الثمار والأشجار والأنهار، وعذوبة الهواء ـ وهي أرض الشام، كما في بعض التفاسير ـ.

(وكنّا بكل شيء عالمين) ومن علمنا وحكمتنا أعطينا سليمان هذا

البساط ليعرف الناس بعض قدرة الله تعالى، وليروا آثار ملكه.

(و) سخّرنا له(من الشياطين) والجِنة(١)(من يغوصون له) في أعماق البحار ليخرجوا الدّر واللؤلؤ والمرجان وسائر الأحجار الكريمة الموجودة في أعماق البحار.

والشيطان والجنّ هنا بمعنى واحد: فإنه جسمٌ لطيف لا تراه العين المجرّدة، يسمّى شيطاناً لشيطنته وسرعة تقلّبه في الأمور، كما يسمّى(جنّاً) لستره عن الأبصار(٢).

(ويعملون عملاً دون ذلك) أي أسهل من الغوص في أعماق البحار البعيدة(وكنّا لهم) أي للشياطين(حافظين) لئلا يهربوا من سليمان أو يفسدوا عليه..(و) قد كانوا يعملون له ما يشاء من(محاريب) للعبادة(وتماثيل) أي بمثال الأشجار وما أشبه(وجفان) جمع جفنة، وهي الآنية الكبيرة(كالجواب) أي كانت كل جفنة كالحوض الكبير، فإن(جواب) جمع جابية، وهي الحوض الكبير(وقدور راسيات) ثابتات في الأرض، القدور لأجل طبخ الطعام للجيش والناس، والجفان لأجل الإطعام(وأسلنا له عين القطر) أي أذبنا لسليمان عين النحاس، فكان كالماء المذاب، يصنعون به ما يشاءون.

---

(١) الجِنة: جمع جني.

(٢) قد عرف العلم الحديث: (التحضير، والتنويم) لهذا الموجود العجيب.

إسرائيل أني أكرم ولد آدم على الله وهذا رجل أكرم على الله مني فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أخوك موسى بن عمران فسلمت عليه وسلم علي واستغفرت له واستغفر لي، وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات. قال: ثم صعدنا إلى السماء السابعة فما مررت بملك من الملائكة إلا قالوا: يا محمد احتجم وأمر أمتك بالحجامة، وإذا فيها رجل أشمط الرأس واللحية جالس على كرسي فقلت: يا جبرئيل من هذا الذي في السماء السابعة على باب البيت المعمور في جوار الله؟ فقال: هذا يا محمد أبوك إبراهيم وهذا محلك ومحل من اتقى من أمتك ثم قرأ رسول الله: «إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه - وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين» فسلمت عليه وسلم علي وقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح والمبعوث في الزمن الصالح وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات فبشروني بالخير لي ولأمتي. قال رسول الله ﷺ: ورأيت في السماء السابعة بحارا من نور تتلألأ تلألؤها يخطف بالأبصار، وفيها بحار من ظلمة وبحار من ثلج ترعد

فكلما فزعت ورأيت هولا سألت جبرئيل فقال: أبشر يا محمد واشكر كرامة ربك واشكر الله بما صنع إليك قال: فثبتني الله بقوته وعونه حتى كثر قولي لجبرئيل وتعجبي. فقال جبرئيل: يا محمد تعظم ما ترى؟ إنما هذا خلق من خلق ربك فكيف بالخالق الذي خلق ما ترى وما لا ترى أعظم من هذا من خلق ربك إن بين الله وبين خلقه سبعين ألف حجاب وأقرب الخلق إلى الله أنا وإسرافيل وبيننا وبينه أربعة حجب حجاب من نور وحجاب من الظلمة وحجاب من الغمامة وحجاب من الماء.

قال: ورأيت من العجائب التي خلق الله وسخر على ما أراده ديكا رجلاه في تخوم الأرضين السابعة ورأسه عند العرش وهو ملك من ملائكة الله تعالى خلقه الله كما أراد رجلاه في تخوم الأرضين السابعة ثم أقبل مصعدا حتى خرج في الهواء إلى السماء السابعة وانتهى فيها مصعدا حتى انتهى قرنه إلى قرب العرش وهو يقول: سبحان ربي حيثما كنت لا تدري أين ربك من عظم شأنه، وله جناحان في منكبه إذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب فإذا كان في السحر نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ

سليمان عليه السلام وبلقيس

كان سليمان عليه السلام إذا جلس على كرسيه، جاءت الجن والملائكة، والإنس فاصطفوا حواليه، على كراسي معدّة لهم.

وجاءت جميع الطير التي سخّرها الله لسليمان، فاصطفت على رؤوس الجميع، لتظللهم من الشمس، وكان لكل طائر مكان مقرّر له، فإذا أشرقت أشعة الشمس على موضع من البساط نظر الحاضرون إلى الكوة، فعرفوا أي الطيور تخلّف عن وظيفته.

وكان الهدهد وهو طائر جميل، من خواصّه أنه ينظر إلى الماء في باطن الأرض ـ من جملة الطيور لتضلّل الجمع في الصافات على مجلس سليمان.

(و) ذات مرّة نظر سليمان، وإذا بالشمس تخرق صفّ الطير، وتقع أشعة منها على حجر سليمان فـ(تفقّد الطير) طلبها وتعرّف إليها، ليرى أي الطير غاب عن صفه، حتى أرسلت الشمس بريدها إلى المجلس.. وإذا بسليمان يرى أن الهدهد هو الغائب(فقال مالي لا أرى الهدهد)؟ أي ما للهدهد لا أراه؟ هل حدث له حدث،(أم كان من الغائبين)؟

وكيف يغيب الهدهد، بلا إذن؟ وهل يجوز لأحد الجند ـ طيراً كان أو غيره ـ أن يترك وظيفته ليذهب حيث يشاء؟

غضب سليمان من هذا الحادث، وحلف قائلاً(لأعذبنّه عذاباً شديداً) بنتف ريشه(أو لأذبحنّه) حتى يكون ذلك ردعاً لغيره من الجنود، وجزاءً على مخالفته الأمر، وهذا التعذيب أو الذبح يكون إذا لم يأتني الهدهد بعذر واضح(أو ليأتينّي بسلطانٍ) أي عذر لغيبته(مبينٍ) واضح لا يقبل الشك والإنكار.

لقد غضب سليمان على الهدهد لتركه وظيفته بدون استئذان ونوى عقوبته(فمكث) سليمان مكوثاً(غير بعيد) وما هي إلا فترة قصيرة، حتى رأى الهدهد راجعاً.

سأل سليمان الهدهد: أين كنت؟ ولماذا غبت؟ وما هي الحجة والعذر في تركك الوظيفة بدون استئذان؟

(فقال) الهدهد يا نبي الله لا تعجّل علي بالعقوبة، فقد ذهبت استطلع لأجلك وإذا بي(أحطت) واطّلعت(بما لم تحط) ولم تطلّع(به) أنت(وجئتك من سبأ) وهي أرض في اليمن(بنبأ) أي خبر(يقين) فليس الكلام كذباً وإنما كلامٌ صادق.

وقد ورد عن النبي(صلى الله عليه وآله):(أن سبأ كان اسم رجل ولد له عشر

فقال الله تبارك وتعالى: قد أعطيتك ذلك لك ولأمتك، فقال الصادق عليه السلام ما وفد إلى الله تعالى أحد أكرم من رسول الله صلى الله عليه وآله حين سأل لأمته هذه الخصال. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا رب أعطيت أنبياءك فضائل فأعطني فقال الله: قد أعطيتك فيما أعطيتك كلمتين من تحت عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا منجا منك إلا إليك. قال: وعلمتني الملائكة قولا أقوله إذا أصبحت وأمسيت: اللهم إن ظلمي أصبح مستجيرا بعفوك، وذنبي أصبح مستجيرا بمغفرتك وذلي أصبح مستجيرا بعزتك، وفقري أصبح مستجيرا بغناك ووجهي الفاني أصبح مستجيرا بوجهك الباقي الذي لا يفنى، وأقول ذلك إذا أمسيت. ثم سمعت الأذان فإذا ملك يؤذن لم ير في السماء قبل تلك الليلة فقال: الله أكبر الله أكبر فقال الله: صدق عبدي أنا أكبر من كل شيء فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله» فقال الله: صدق عبدي أنا الله لا إله إلا أنا ولا إله غيري فقال: «أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله» فقال الله: صدق عبدي أن محمدا عبدي ورسولي أنا بعثته وانتجبته فقال: «حي على الصلاة

حي على الصلاة» فقال: صدق عبدي دعا إلى فريضتي فمن مشى إليها راغبا فيها محتسبا كانت له كفارة لما مضى من ذنوبه فقال: «حي على الفلاح حي على الفلاح» فقال الله: هي الصلاح والنجاح والفلاح. ثم أممت الملائكة في السماء كما أممت الأنبياء في بيت المقدس. قال: ثم غشيتني ضبابة فخررت ساجدا فناداني ربي أني قد فرضت على كل نبي كان قبلك خمسين صلاة وفرضتها عليك وعلى أمتك فقم بها أنت في أمتك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: فانحدرت حتى مررت على إبراهيم فلم يسألني عن شيء حتى انتهيت إلى موسى فقال: ما صنعت يا محمد؟ فقلت قال ربي: فرضت على كل نبي كان قبلك خمسين صلاة وفرضتها عليك وعلى أمتك. فقال موسى: يا محمد إن أمتك آخر الأمم وأضعفها وإن ربك لا يزيده شيء وإن أمتك لا تستطيع أن تقوم بها فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعت إلى ربي حتى انتهيت إلى سدرة المنتهى فخررت ساجدا ثم قلت: فرضت علي وعلى أمتي خمسين صلاة ولا أطيق ذلك ولا أمتي فخفف عني فوضع عني عشرا فرجعت إلى

لكن بقي شيء، وهو ما هو دين الملكة ودين قومها؟ لقد قال الهدهد(وجدتها وقومها يعبدون الشمس من دون الله) فهم عوض أن يعبدوا الخالق الذي أعطاهم كل شيء، يعبدون الشمس(وزيّن لهم الشيطان أعمالهم) هل أراد الهدهد بهذا تأكيد الكلام السابق بأن أراد بأعمالهم عبادتهم للشمس، أو أراد أنهم كانوا مغمورين في الفسق والفجور؟ ـ كل ذلك محتمل ـ ولعل الأقرب إرادة المعنى الثاني، فإنّ الغالب في الكفار تفشّي المنكرات والآثام والإجرام فيهم.

وكيفما كان، فقد أتم الهدهد كلامه قائلاً:(فصدّهم) الشيطان(عن السبيل) الواضح، الذي هو طريق الله سبحانه(فهم لا يهتدون) إلى الحق في العقيدة والعمل.

(ألاّ يسجدوا) الملكة وقومها(لله الذي يخرج الخبءَ في السماوات والأرض) إن الله سبحانه هو الذي أخرج النعم المخفية الموجودة في السماوات والأرض، فهو مخرج الشمس والقمر والنجوم، والسحاب والمطر، وما إليها مما يكون مخفياً في السماوات، يخرجها لينفع البشر.. وهو سبحانه الذي أخرج المياه والكنوز والأثمار وغيرها من جوف الأرض لينفع الإنسان.. إن الملكة وقومها لم يكونوا يسجدون لهذا الإله العظيم(و) هو الذي(يعلم ما تخفون وما تعلنون) أيتها الملكة وأيها القوم فهو المعطي وهو العالم.

(الله لا اله إلا هو رب العرش) الملك(العظيم) الذي هو أعظم من عرش بلقيس.. هكذا أخبر الهدهد سليمانعليه السلام معتذراً من غيبته.

***

لما سمع سليمانعليه السلام الخبر المدهش من الهدهد تريّث في الأمر، قائلاً(سننظر أصدقت) في خبرك(أم كنت من الكاذبين)؟ فإن صدقت فأنت معذور في غيبتك وإلا استحققت عقابين: عقاب الغيبة بدون إذن، وعقاب الكذب.

ثم إن سليمانعليه السلام كتب كتاباً، وختمه بخاتمه، وأعطاه إلى(الهدهد) ليذهب به إلى الملكة، إنه كتاب دعوة إلى الإسلام والإيمان، فهل تقبل الملكة والقوم الإيمان بالله حتى يكونوا في أمن وسلام، أم يختارون العناد والإصرار حتى تجوز لهم العقوبة؟

دفع سليمانعليه السلام، الكتاب إلى الهدهد، قائلاً:(اذهب بكتابي هذا فألقه) يا هدهد(إليهم) إلى الملكة وقومها(ثمّ تولّ) ابتعد(عنهم) لتكون في موضع تسمع كلامهم، ولا يرونك(فانظر) يا هدهد(ماذا يرجعون) أي يرجع بعضهم إلى بعض الكلام حول الكتاب وقد أراد سليمانعليه السلام أن يتخذ التدابير اللازمة على ضوء جواب بعضهم لبعض.

بعير لقريش وإذا لهم ماء في آنية وقد أضلوا بعيرا لهم وكانوا يطلبونه فشرب رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك الماء وأهرق باقيه. فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله قال لقريش: إن الله جل جلاله قد أسرى بي إلى بيت المقدس وأراني آثار الأنبياء ومنازلهم، وإني مررت بعير لقريش في موضع كذا وكذا وقد أضلوا بعيرا لهم فشربت من مائهم وأهرقت باقي ذلك فقال أبو جهل: قد أمكنتكم الفرصة منه فاسألوه كم الأساطين فيها والقناديل؟ فقالوا: يا محمد إن هاهنا من قد دخل بيت المقدس فصف لنا كم أساطينه وقناديله ومحاريبه؟ فجاء جبرئيل فعلق صورة بيت المقدس تجاه وجهه فجعل يخبرهم بما يسألونه عنه فلما أخبرهم، قالوا: حتى يجيء العير ونسألهم عما قلت، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله تصديق ذلك أن العير يطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق. فلما كان من الغد أقبلوا ينظرون إلى العقبة ويقولون هذه الشمس تطلع الساعة فبينما هم كذلك إذ طلعت عليهم العير حين طلع القرص يقدمها جمل أورق فسألوهم عما قال رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: لقد كان هذا: ضل جمل لنا في موضع كذا وكذا، ووضعنا

ماء فأصبحنا وقد أهريق الماء فلم يزدهم ذلك إلا عتوا.

أقول: وفي معناها روايات أخرى من طرق الفريقين.

وفيه، بإسناده عن عبد الله بن عباس قال: إن رسول الله ﷺ لما أسري به إلى السماء انتهى به جبرئيل إلى نهر يقال له النور وهو قوله عز وجل: «جعل الظلمات والنور» فلما انتهى به إلى ذلك قال له جبرئيل: يا محمد اعبر على بركة الله فقد نور الله لك بصرك ومر لك أمامك فإن هذا نهر لم يعبره أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل غير أن لي في كل يوم اغتماسة فيه ثم أخرج منه فأنفض أجنحتي فليس من قطرة تقطر من أجنحتي إلا خلق الله تبارك وتعالى منها ملكا مقربا له عشرون ألف وجه وأربعون ألف لسان كل لسان يلفظ بلغة لا يفقهها اللسان الآخر. فعبر رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى الحجب والحجب خمس مائة حجاب من الحجاب إلى الحجاب مسيرة خمسمائة عام ثم قال: تقدم يا محمد فقال له: يا جبرئيل ولم لا تكون معي؟ قال: ليس لي أن أجوز هذا المكان فتقدم رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يتقدم حتى سمع ما قال الرب تبارك وتعالى: أنا المحمود وأنت محمد

شققت اسمك من اسمي فمن وصلك وصلته ومن قطعك بتكته انزل إلى عبادي فأخبرهم بكرامتي إياك وأني لم أبعث نبيا إلا جعلت له وزيرا وأنك رسولي وأن عليا وزيرك. وفي المناقب، عن ابن عباس في خبر: وسمع يعني رسول الله ﷺ صوتا «آمنا برب العالمين» قال يعني جبرئيل: هؤلاء سحرة فرعون، وسمع لبيك اللهم لبيك قال: هؤلاء الحجاج، وسمع التكبير قال: هؤلاء الغزاة، وسمع التسبيح قال: هؤلاء الأنبياء. فلما بلغ إلى سدرة المنتهى وانتهى إلى الحجب، قال جبرئيل: تقدم يا رسول الله ليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحترقت. وفي الاحتجاج، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ فيما احتج على اليهود: حملت على جناح جبرئيل حتى انتهيت إلى السماء السابعة فجاوزت سدرة المنتهى عندها جنة المأوى حتى تعلقت بساق العرش فنوديت من ساق العرش: إني أنا الله لا إله إلا أنا السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤوف الرحيم فرأيته بقلبي وما رأيته بعيني. الخبر.

وفي الكافي، بإسناده عن أبي الربيع قال: حججنا مع أبي

جعفر عليه السلام في السنة التي كان حج فيها هشام بن عبد الملك وكان معه نافع مولى عمر بن الخطاب فنظر نافع إلى أبي جعفر عليه السلام في ركن البيت وقد اجتمع إليه الناس فقال نافع: يا أمير المؤمنين من هذا الذي قد تداك عليه الناس؟ فقال: هذا نبي أهل الكوفة هذا محمد بن علي فقال: اشهد لآتينه فلأسألنه من مسائل لا يجيبني فيها إلا نبي أو وصي أو ابن نبي. قال: فاذهب إليه واسأله لعلك تخجله. فجاء نافع حتى اتكى على الناس ثم أشرف على أبي جعفر عليه السلام وقال: يا محمد بن علي إني قرأت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وقد عرفت حلالها وحرامها، وقد جئت أسألك عن مسائل لا يجيب فيها إلا نبي أو وصي نبي أو ابن نبي. قال: فرفع أبو جعفر عليه السلام رأسه وقال: سل عما بدا لك. فقال: أخبرني كم بين عيسى وبين محمد من سنة؟ قال: أخبرك بقولي أو بقولك قال: أخبرني بالقولين جميعا قال: أما في قولي فخمسمائة سنة، وأما في قولك فستمائة سنة، قال فأخبرني عن قول الله عز وجل: «و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا - أ جعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون» من الذي سأله محمد صلى الله عليه وآله وكان بينه وبين عيسى عليه السلام

أراد سليمان عليه السلام، أن يري لها عظمته، حتى تكون أقرب إلى الطاعة والانقياد، ولتكون حجّة على نبوّته، ولذا طلب من زعماء أصحابه أن يأتوا بعرشها العظيم إلى حيث مقرّ سليمان، فقال:(يا أيها الملأ) الأشراف من أصحابي(أيكم يأتيني بعرشها) أي سرير ملكها الموجود في(سبأ)(قبل أن يأتوني) هي وأشراف قومها(مسلمين) منقادين لله مطيعين لي؟

(قال عفريت) ماردٌ قويٌّ(من الجن) الذين كانوا مسخرين لسليمان:(أنا آتيك) يا نبي الله(به) أي بالعرش(قبل أن تقوم من مقامك) أي من مجلسك، وهذا كنايةٌ عن الإتيان به في نصف يوم تقريباً(وإني عليه لقويّ) قادر على حمله، والإتيان به في هذه المدة القصيرة(أمين) لا أخون في ذهبه وجواهره وحليه.

(قال الذي عنده علمٌ من الكتاب) وهو آصف بن برخيا، وزير سليمان، وكان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب فوراً - ولعل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ -(أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) بمقدار لمح البصر.

* * *

استحسن سليمان كلام(آصف)، وطلب منه إحضار العرش.

تدلى فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتى ظن أنه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى. وفي تفسير القمي، بإسناده عن إسماعيل الجعفي قال: كنت في المسجد الحرام قاعدا وأبو جعفر عليه السلام في ناحية فرفع رأسه فنظر إلى السماء مرة وإلى الكعبة مرة ثم قال: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» وكرر ذلك ثلاث مرات ثم التفت إلي فقال: أي شيء يقولون أهل العراق في هذه الآية يا عراقي؟ قلت: يقولون أسري به من المسجد الحرام إلى البيت المقدس. فقال: ليس هو كما يقولون ولكنه أسري به من هذه إلى هذه وأشار بيده إلى السماء وقال: ما بينهما حرم. قال: فلما انتهى به إلى سدرة المنتهى تخلف عنه جبرئيل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل أ في مثل هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغا لم يبلغه خلق من خلق الله قبلك فرأيت ربي وحال بيني وبينه السبحة قلت: وما السبحة جعلت فداك؟ فأومأ بوجهه إلى الأرض وأومأ بيده إلى السماء وهو يقول: جلال ربي جلال ربي، ثلاث مرات. قال: يا محمد قلت: لبيك يا رب قال: فيم اختصم الملأ

الأعلى؟ قلت سبحانك لا علم لي إلا ما علمتني. قال: فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي. قال: فلم يسألني عما مضى ولا عما بقي إلا علمته فقال: يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: في الدرجات والكفارات والحسنات فقال: يا محمد إنه قد انقضت نبوتك وانقطع أكلك فمن وصيك فقلت: يا رب إني قد بلوت خلقك فلم أر فيهم من خلقك أحدا أطوع لي من علي فقال: ولي يا محمد فقلت: يا رب إني قد بلوت خلقك فلم أر من خلقك أحدا أشد حبا لي من علي بن أبي طالب قال: ولي يا محمد فبشره بأنه آية الهدى وإمام أوليائي ونور لمن أطاعني والكلمة الباقية التي ألزمتها المتقين من أحبه أحبني ومن أبغضه أبغضني مع ما أني أخصه بما لم أخص به أحدا فقلت: يا رب أخي وصاحبي ووزيري ووارثي فقال: إنه أمر قد سبق أنه مبتلى ومبتلى به مع ما أني قد نحلته ونحلته ونحلته أربعة أشياء عقدها بيده ولا يفصح بما عقدها. أقول: قوله عليه السلام: «و لكنه أسري به من هذه إلى هذه» أي من الكعبة إلى البيت المعمور، وليس المراد به نفي الإسراء إلى بيت المقدس ولا تفسير المسجد الأقصى في

ثم قالت ـ وهي تظهر عدم استغرابها من إتيان سليمان بعرشها ـ:(وأوتينا العلم من قبلها) أي قبل أن تنظر إلى آية سليمان في مجيء العرش(وكنّا مسلمين) لسليمان، ولذا أتيناه(وصدها) سابقاً عن الحق ـ حيث كانت تعبد الشمس ـ(ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) بالله، عابدة هي وقومها للشمس.

* * *

مرّت بلقيس من موضع عرشها، حتى وصلت إلى باب(الصّرح) الذي جلس فيه سليمان، لاستقبالها، فلمّا وصلت، ونظرت إلى الماء والأسماك(قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته) توقّفت إذ(حسبته) وظنّت أن الصرح(لجّة) من الماء.

ثم.. لمّا لم تر بدّاً من الدخول(كشفت عن ساقيها) فرفعت ثوبها، لئلا يبتلّ بالماء(قال) لها سليمان(إنه) ليس ماء بل هو(صرحٌ ممرّدٌ) مملّس(من قوارير) جمع قارورة، وهي الزجاجة.

فدخلت، و(قالت) ضارعةً إلى الله سبحانه، مستغفرة عمّا كانت عليه سابقاً من الكفر وعبادة الشمس(رب إني ظلمت نفسي وأسلمت) الآن(مع سليمان) فإني مسلمة معه، معترفة(لله رب العالمين).

وقد ورد في بعض الأخبار، أن سليمان عليه السلام، رأى ما على رجل

الملكة من شعر فأمر الجن أن يصنعوا لإزالة الشعر دواءً، فصنعوا الحمّام واخترعوا(النورة)..

وكان سليمان عليه السلام تزوّج بالملكة، وأسلم أهل سبأ، وانتهى الأمر بسلام.. كلّ ذلك بفضل عزم سليمان، وحكمة(بلقيس).

وقد علم ـ هذا النبي العظيم، وهذه الملكة العاقلة ـ الناس، الاهتمام بأمر الدين، وقوة العزيمة في هداية الناس، مهما كلف الأمر حيث لم يقل سليمان:(لنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها...)؟ ثم ... ألم تكن من حكمة بلقيس أنها رجّحت الانقياد لله ولسليمان على الكبر والغرور والبقاء في الكفر والضّلال؟

وهكذا فليتعلّم الناس، هداة ومدعوين إلى الهداية.

***

وقعت في زمن(داود) والد(سليمان) عليهما السلام، قصّة دلّت على فضل سليمان ونبله، فقد كان في بني إسرائيل رجل كان له(كرم) شجر العنب، فنفشت ورعت في بستانه غنمٌ لرجل آخر، في الليل، فقضمته وأفسدته.

ولمّا جاء الصباح، وجاء صاحب البستان فرأى الفساد وانجال في بستانه، فجاء بصاحب الغنم إلى داود عليه السلام ليحكم بينهما.

إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور وإذا يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها فيها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى إلي ما أوحى وفرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف عن أمتي فحط عني خمسا فرجعت إلى موسى فقلت:

وذات مرة وقف سليمان عليه السلام ليستعرض الخيل التي كان هيأها لجهاد الكفار ـ كما هي العادة في الاستعراضات العسكرية ـ واشتغل بذلك حتى فاته صلاة نافلة كان يصليها.

فتأثّر سليمان عليه السلام من ذلك تأثراً بليغاً، كيف فاته النافلة وإن كانت هي مستحبة، ولماذا اشتغل بالخيل عن ذكر الله؟

ولذا وقف تلك الخيل في سبيل الله تعالى، حتى يدرك بعض الثواب الذي فاته بسبب تركه النافلة(١).

(ووهبنا لداود) النبي عليه السلام (سليمان) وسليمان (نعم العبد) المطيع لله تعالى (إنه أوّاب) كان كثير الأوب والرجوع إلى الله تعالى حتى إنه إذا فاته نافلة آب ورجع وتدارك ذلك بالإتيان ثواب غيرها (إذ عرض عليه) أي على سليمان (بالعشي) في وقت العصر، الأفراس (الصّافنات) وهي التي تقف على ثلاث، وترفع إحدى قوائمها، وذلك لا يكون إلا في الخيل الجيد (الجياد) جمع جيد.

وطال العرض حتى غابت الشمس، ولم يصل سليمان نافلته المعتادة كل يوم (فقال) سليمان متحسّراً على ما فاته (إني أحببت حب الخير)

---

(١) في الآية، اختلاف كثير، ولعل بما ذكرناه يمكن الجمع بين ظاهر الآية، وبين الروايات، وبين عصمة الأنبياء.

قصة اسماعيل صادق الوعد

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ـ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا

في الميزان قال: لم ترد قصة إسماعيل بن حزقيل النبي في القرآن إلا في هاتين الآيتين على أحد التفسيرين وقد أثنى الله سبحانه عليه بجميل الثناء فعده صادق الوعد وآمرا بالمعروف ومرضيا عند ربه، وذكر أنه كان رسولا نبيا.

وأما الحديث ففي علل الشرائع، بإسناده عن ابن أبي عمير ومحمد بن سنان عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن إسماعيل الذي قال الله عز وجل في كتابه: «و اذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد - وكان رسولا نبيا» لم يكن إسماعيل بن إبراهيم بل كان نبيا من الأنبياء بعثه الله عز وجل إلى

وهنا عرف أنه كان ينبغي له أن لا يدع الولد للسحاب فإن الموت والحياة بيد الله تعالى، ولذا استغفر الله تعالى(ولقد فتنّا) وامتحنّا(سليمان) لنرى صبره ولننبّهنّم على أن الأولى به أن يكون في درجة رفيعة من التوكل(وألقينا على كرسيه) الذي كان يحكم عليه(جسداً) لولده الميت(ثم أناب) وتاب.

(قال) سليمان:(رب اغفر لي) اعتمادي على السحاب في حفظ الولد ـ وإن كان هذا الاعتماد جائزاً، إذ من الجائز للإنسان أن يدبّر شؤونه حسب الصلاح والحكمة ـ(وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) فاستجاب الله سبحانه دعاءه، بل تفضّل عليه حيث يقول:(فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) إلى كل مكان أراد الذهاب إليه.

* * *

وهناك قصة شيّقة من قصص سليمان عليه السلام، فقد بنى أبوه(داود) عليه السلام بيت المقدس، ولم يكمّله حتى وافاه الأجل. وأخذ(سليمان) في تكميل البناء حتى كملت البناية على أحسن ما يرام.

ثم أمر سليمان الجن الأقوياء بالبناء، فأخذوا في البناء بكل سرعة، وذات يوم وقف سليمان متّكئاً على عصاه ينظر إلى العمل والعمّال.

وإذا به يرى شاباً حسن الصورة إلى جنبه. سأله سليمان: من أنت؟ ومن أذن لك في الدخول عليّ بدون إجازتي؟ قال الشاب: أنا الذي لا أقبل إرثاً، ولا أهاب الملوك، فعرف سليمان أنه ملك الموت جاءه ليقبض روحه.

فقبض ملك الموت روح سليمان، وهو متّكئ على عصاه، والجنّ يظنّون أنه حي، ويتعجبون كيف لا يتعب؟ وكيف لا يأكل ولا يشرب؟ وكان(آصف بن برخيا) وزير سليمان وخليفته، يدير شأن البناء والعمّال، حتى مضت مدّة طويلة.

(فلمّا قضينا عليه) أي حكمنا على سليمان(الموت ما دلّهم على موته إلا دابّة الأرض) الأرضة(تأكل منسأته) أي أخذت تأكل عصاه، حتى إذا فسدت خرّ سليمان واقعاً على الأرض ـ لذهاب متّكئه ـ(فلمّا خرّ سليمان(تبيّنت الجن) وعرفت(أن لو كانوا يعلمون الغيب) الشيء الغائب عن حواسّهم(ما لبثوا) هذه المدة المديدة(في العذاب المهين) أي تعب العمل الذي كانوا يعملونه لسليمان في بناء ما يريده من الأبنية.

إلى هنا تنتهي مقتطفات من قصة سليمان ابن داود عليه السلام.

* * *

وقد كان سليمان كسائر الأنبياء، مثالاً للطهارة والنزاهة، والعدل والإرشاد، والزهد والتقوى.

أما ما ينسب إليه في بعض كتب أهل الكتاب، أو كتب بعض المفسّرين والمؤرخين، مما لا يليق بمقام الأنبياء، فذلك غير صحيح، فقد حرّف أهل الكتاب بعض الحقائق جهلاً أو عناداً، ثم تسرّبت تلك الأمور المشوّهة إلى بعض التفاسير وكتب السير.

بقيت نكتة ينبغي التنبيه عليها، وهي:

إن في(بعلبك) بلبنان قلعة عجيبة، بقيت أطلالها إلى هذا اليوم، وقسم من أهل الاطّلاع يقولون: إن هذا ليس من صنع البشر، لعدم وصول وسائل البناء في العصور السابقة، إلى ما يستطيع الإنسان معها من إنشاء مثل هذه(القلعة).

ولعلّ هذه القلعة من بناء(الجن) الذين كانوا مسخرين لسليمان عليه السلام، فقد ورد في كتب السير: أن محل سليمان ومسكنه كانا في(بعلبك) مدة من الزمن، وكان يسير منها ـ في البساط ـ إلى بيت المقدس كل يوم، لأجل البناء. والله العالم بالحقائق، وهو المستعان(١).

(١) القصص الحق.

قصة أصحاب الرس

وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ـ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ـ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا.

في العيون، بإسناده عن أبي الصلت الهروي عن الرضا عن أمير المؤمنين عليه السلام: حديث طويل يذكر فيه قصة أصحاب الرس، ملخصه أنهم كانوا قوما يعبدون شجرة صنوبرة يقال لها شاهدرخت كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها: روشنآب وكان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطىء نهر يقال له الرس يسمين بأسماء: آبان، آذر، دي، بهمن، إسفندار، فروردين، أرديبهشت خرداد، مرداد، تير، مهر، شهريور، ومنها اشتق العجم أسماء شهورهم. وقد غرسوا في كل

وهنا أخذ (المسيح) الطفل، يتكلّم، قائلاً: (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً وجعلني مباركاً).

إذن.. يا للفرحة، إنه هو الطفل الذي طالما انتظره الأقوياء والضعفاء على حد سواء قد جاء؟

لقد جاء المخلّص، وقد جاء المسيح الموعود. وليس بينهم وبين الخلاص، إلا سنوات، حتى يكبر هذا المولود، ويبلغ مبلغ الرجال، فهو الملك النبي الذي ينقذهم من كل مكروه.

***

أخذ المسيح ينمو، لا كنمو الأطفال بل نموّاً مستغرباً، وقد أخذت الألباب الدهشة، لما رأوه في الوليد.

فقد كان عيسى يخبر الأطفال ـ حينما يجتمع بهم ـ بما أكلوا في غذائهم، وما ادّخروه في بيوتهم، وكان ذلك مما يثير عجب الأولاد، والآباء.

وقد كان الكل يعلم أن له مستقبلاً زاهراً، وكان يضاف إلى ذلك، الغرائب التي يشاهدونها حوله.

ففي مرة جاء وفد من عظماء المجوس إلى مريم الطاهرة، مما لفت انتباه الجميع، يا ترى ماذا يريد هؤلاء؟ وكيف تعرّفوا على هذا

البيت؟ ومن أين عرفوا هذه المخدّرة الصالحة؟

لما وصلوا إلى دار مريم، سلّموا عليها، وأكبروها، ثم قالوا:

إنا قوم ننظر في النجوم، فلما ولد ابنك طلع بمولده نجمٌ من نجوم الملك ـ مما دل على أنه ولد ملك على الأرض ـ وبعد أن دقّقنا النظر، رأينا أن ملك هذا المولود، ليس من قبل ملك ملوك الأرض.. وإنما ملك نبوة مما لا يزول، ولا يفارقه حتى يرفع إلى السماء ويصير إلى ملك أطول.

ولمّا رأينا ذلك أخذنا نتتبع البلاد، بلداً بلداً، حسب تطلّع النجم المذكور، حتى رأيناه فوق هذا البلد.. وبذلك عرفنا موضع المولود العظيم.

ثم إن عظماء المجوس، بعد ما تبيّنوا صدق تنبؤهم.. ورأوا آثار العظمة في المسيح عليه السلام قدموا لمريم الصديقة، هدية غريبة(الذهب، والمرّ، واللبان). ثم قالوا في سبب إهدائهم هذه الهدية:

الذهب: هو سيد المتاع كله، فإهداؤنا له إشارة إلى أن ابنك سيد الناس.

والمرّ: يجبر الجراحات، فهو إشارة إلى أن ابنك يُبرئ الجراحات والأمراض والجنون والعاهات.

واللبان: إذا أُشعل ارتفع دخانه في أجواء الفضاء. فهو إشارة إلى أن ابنك يرفع إلى السماء ولا يرفع إلى السماء غيره. ثم ودّعوا الصديقة مريم، بعد ما أوصوها بابنها خيراً، وذهبوا قافلين..

* * *

بعدما كبر المسيح، أخذ يبشّر الناس بدينه، وأنه المبعوث من قبل الله تعالى لهداية البشر من الضلالة، وإنقاذهم من براثن الجهالة، وتعليمهم ما حرّفته اليهود من أحكام الشريعة.

(إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك) بأن جعلتك نبيّاً عظيماً،(وعلى والدتك) حيث أنعمت عليها بأنواع النعم التي منها، هبتك لها.

(وإذ أيدتك بروح القدس) الروح المقدس الذي يلازمك ويسدّدك، ويريك الغيب، وينزل عليك من الله بالشريعة(تكلّم الناس في المهد) حين كنت طفلاً رضيعاً(وكهلاً) حين كنت كبيراً تكلّمهم بالوحي والشريعة الملهمة بك.

(وإذ علّمتك الكتاب) الكتب السماوية(والحكمة) معرفة الأشياء ومواضعها، فلا تقول ولا تفعل شيئاً إلا بالصواب(و) علّمتك(التوراة) كتاب موسى عليه السلام(والإنجيل) الكتاب المنزل عليك.

قصة أصحاب الكهف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا - إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا - فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا - ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا - نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى - وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا - هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا - وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا - وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ

وكانت معجزات الأنبياء حسب اقتضاء زمانهم، مثلاً:

موسى عليه السلام بعث في زمان كثر فيه السحر والشعبذة، وكان السحرة يملأون الحبال والعصي بالزئبق فيضعونها في الشمس فتتحرك تلك الحبال والعصي بتحرّك الزئبق داخلها، فيقولون للناس: انظروا كيف صنعنا من الحبال والعصي حيّات وأفاعي متحركة ذات حياة.

ولذا جاء موسى بما يشبه سحرهم، لكنه حقيقة لا خيال، فكان إذا ألقى عصاه من يده، صارت حيّة عظيمة تبتلع حبال السحرة، ثم ترجع عصا كما كانت، من دون أن يزيد في ضخامتها شيء.. ولذا آمن السحرة لما رأوا أنها ليست بسحر.

والمسيح عليه السلام، كان في زمان كثر فيه الطب، وحذق الأطباء، إلى حد مدهش، فجاء عيسى بما يعجز عنه الطب، من إبراء الأعمى وشفاء الأبرص، وإحياء الموتى.

وأي طبيب يقدر على هذه الأمور، مهما بلغ من السّم وفي الطب؟

ولذا آمن أهل فن الطب والحذّاق منهم بالمسيح، وقالوا: إن ما يفعله خارج عن نطاق الطب، وهو خاص بالله سبحانه، وبمن أرسله.

ونبي الإسلام محمدﷺ بعث في زمان قويت فيه البلاغة، والفصاحة، حتى إن الأعراب والقبائل، كانوا يعقدون الأسواق، للمباراة في البلاغة والأدب والفصاحة والشعر، كسوق(عكاظ) وغيره.

فجاء النبيﷺ بالقرآن العظيم، الذي هو فوق كلام الناس، وأرفع من مستوى أعظم البلغاء، ثم تحدّاهم، قائلاً:(فأتوا بسورة من مثله).

لكنهم ارتدّوا، وعجزوا، واعترفوا بأنه ليس مثل كلام البشر، وبذلك ثبتت الحجة عليهم وأنه منزلٌ من قبله سبحانه.

***

لقد كان المسيحعليه السلام، يعيش عيشة بسيطة متواضعة، ويسيح في الأرض، يسافر من قرية إلى قرية، ومن بلد إلى بلد، ليرشد الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

وقد كان أحد أسباب التفاف الناس حوله، هذه البساطة المدهشة في معيشته، فلا زوجة له، ولا دار، ولا أثاث، ولا أموال.

وكان إذا قيل له في ذلك، أجاب بهذا الجواب الذي يقطر عطراً وأرجاً:

خادمي يداي.. ودابّتي رجلاي..

وفراشي الأرض.. ووسادي الحجر..

ودفئي في الشتاء مشارق الشمس..

وسراجي بالليل القمر..

وأدامي الجوع.. وشعاري الخوف..

ولباسي الصوف..

وفاكهتي وريحانتي ما أنبتت الأرض للوحوش والأنعام..

أبيت وليس لي شيء.. وأصبح وليس لي شيء..

وليس على وجه الأرض أحد أغنى مني.

هكذا كان المسيح الطاهر، فلا خادم له يخدمه، وإنما كان يقضي حوائجه بكلتا يديه الكريمتين، بل فوق ذلك، ربّما غسل أرجل تلاميذه، فكانوا ينكرون ذلك منه، فيقول لهم: بحقي عليكم إلا ما خلّيتم، وإنما أفعل ذلك بكم، لتفعلوا مثله بالناس من بعدي.

ولم تكن له دابّة يركبها، في أسفاره المتتالية، وإنما كان ينتقل من هنا إلى هناك ماشياً، وأحياناً حافياً.

كما أنه لم يكن له بساطٌ يفترشه وقت المنام، ولا وساد إلا الحجر،

الأصنام فمن لم يجبه قتله، وكان هؤلاء قوما مؤمنين يعبدون الله عز وجل، ووكل الملك بباب المدينة ولم يدع أحدا يخرج حتى يسجد للأصنام فخرجوا هؤلاء بعلة الصيد وذلك أنهم مروا براع في طريقهم فدعوه إلى أمرهم فلم يجبهم وكان مع الراعي كلب فأجابهم الكلب وخرج معهم. قال عليه السلام: فخرج أصحاب الكهف من المدينة بعلة الصيد هربا من دين ذلك الملك فلما أمسوا دخلوا إلى ذلك الكهف والكلب معهم فألقى الله عليهم النعاس كما قال الله: «فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا» فناموا حتى أهلك الله ذلك الملك وأهل المدينة وذهب ذلك الزمان وجاء زمان آخر وقوم آخرون. ثم انتبهوا فقال بعضهم لبعض: كم نمنا هاهنا؟ فنظروا إلى الشمس قد ارتفعت فقالوا: نمنا يوما أو بعض يوم ثم قالوا لواحد منهم: خذ هذه الورق وأدخل المدينة متنكرا لا يعرفونك فاشتر لنا طعاما فإنهم إن علموا بنا وعرفونا قتلونا أو ردونا في دينهم. فجاء ذلك الرجل فرأى مدينة بخلاف التي عهدها ورأى قوما بخلاف أولئك لم يعرفهم ولم يعرفوا لغته ولم يعرف لغتهم فقالوا له: من أنت، ومن أين جئت؟ فأخبرهم فخرج

ـ ولعل ذلك كان بسبب بقاء شريعة موسى عليه السلام التي فيها كل هذه الأشياء.

وأنزل على المسيح تخفيف ما كان نزل على موسى عليه السلام.. فقال المسيح للقوم:(ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم). وقد أمر المسيح اتباعه باتباع(التوراة) وما أنزل على النبيين من قبله.

كما أخبرهم بمجيء محمد صلى الله عليه وآله وأخذ منهم الميثاق بأن يؤمنوا به.

وعندما انتشر خبر شفاء المسيح للمرضى، توجه إليه من أطراف البلاد عددٌ كثيرٌ من المرضى الذين كانوا مصابين بأمراض مزمنة، أو نواقص خلقيّة.. حتى إنه ذكر بعض المصادر أن المسيح عليه السلام شفى ـ بإذن الله تعالى ـ في حقبة غير طويلة من الزمن ـ خمسين ألف إنسان وهذا غير بعيد عن طبيعة الناس، الذين يجتمعون بهذه الكمّيات، لشبعة بطن أو ما أشبه فكيف للشفاء من الأسقام، والتكميل لنواقصهم الخلقية، كالعمى، والعرج، والشلل، والبكم، وأشباهها؟

وهكذا أخذ المسيح عليه السلام، يغزو العقول والأفكار، بما يريه من المعجزات والكرامات. وما يبديه من الأخلاق والفضائل، وما يخفّفه من الشرائع الموسوية المشدّدة، وما يعيشه من البساطة في المأكل

والملبس وسائر الشؤون الشخصية.

***

وقد كان المسيح عليه السلام، قوي العزيمة، صلب الإرادة في تبليغ الناس وإرشادهم. لا يبالي بما يلاقيه من الأتعاب الجسدية والمضايقات الروحية ـ من جماعة اليهود الحساد.

ولم يقتصر تبليغ المسيح بنفسه الكريمة..

فقد جمع حوله نخبة من الرجال الأطهار، الذين سمّاهم (بالحواريّين) وكان هؤلاء في مرتبة رفيعة من السمو الروحي، والرفعة النفسية، ولم يكفر هؤلاء بالمسيح طرفة عين، كما لم يتبرأوا من تعاليمه النيّرة برهة من الزمن ـ لا كما ينسب أهل الكتاب إليهم: من أنهم ارتدّوا، فإن ذلك تحريفات أهل الكتاب في جملة ما حرّفوا من التاريخ والأحكام ـ.

وقد كان الغالب أن يلازم المسيح عليه السلام هؤلاء في حله وترحاله.

كما أن المسيح عليه السلام، كان يبعث بهم رسلاً إلى مختلف البلاد، لهداية الناس إلى الدين المسيحي الجديد، وتبشيرهم بالنبي المبعوث.

ففي ذات مرة، بعث المسيح بأحد الحواريّين إلى الروم، وزوّده

ـ بأمر الله تعالى ـ بمعجزة إبراء الأكمه والأبرص فذهب ـ كما أمر المسيح ـ وأخذ في تبشير الناس ـ وإذا طالبوه بالمعجزة دليلاً على صدقه، أبرأ الأعمى وشفى الأبرص، وبذلك قوي أمره، والتف حوله الناس.

ولم يمض زمان حتى وصل الخبر المدهش إلى ملك الروم.

طلبه الملك.. وقال له، هل أنت رسول النبي الجديد؟ وهل صحيح أنك تبرئ الأكمه والأبرص؟ أجاب(الحواري) بالإثبات.

فأمر الملك بإحضار غلام منخسف الحدقة، لا عين له ـ إطلاقاً ـ وقال: إن كنت صادقاً، فأبرئ هذا الغلام.

فأخذ(الحواري) بندقتين من الطين، وجعلهما في مكان عيني الغلام، ثم دعا الله سبحانه وتعالى، فإذا هو بصير يرى كل شيء، وله عين صحيحة.

تعجّب الملك وآمن بالمسيح. وأنزل الحواري منزلاً حسناً، وقال له: كن معي، ولا تخرج من مصري، وهكذا علا أمر المسيح في تلك المنطقة.

* * *

وذات مرة أرسل المسيح عليه السلام، أحد الحواريّين إلى بعض البلاد،

وعلّمه الدعاء الذي يحيي به الموتى ـ بإذن الله تعالى ـ

دخل الحواري تلك البلاد، وأخذ يبشر بالدين الجديد، ويقول: أنا أعلم من طبيب الملك، إنه يعرف شفاء بعض الأمراض، وأنا أعرف إحياء الموتى ـ الذي لا يقدر عليه إلا الله ورسُله ـ وسمع الملك بالنبأ، واغتاظ، لأنه اعتبر كلام الحواري حول طبيبه تحدياً بالنسبة إليه، ولذا أمر بعض جلاوزته بقتل الحواري.

لكن طبيب الملك كان رجلاً حكيماً ـ وكان في الباطن ـ من رسل المسيح، ولم يظهر ذلك منذ أن تسنّم هذا المنصب ـ فنهى الملك، وقال: الأفضل ـ أيها الملك ـ أن تحضر هذا المدعي، فإن صدق في مقالته، فما أحسن هذا الذي يقول، وإن كذب كانت لك الحجة عليه أمام الناس.

قبل الملك مشورة طبيبه، فأمر بإحضار(الحواري)، وقال له: أنت الذي تزعم أنك تحيي الموتى؟ قال(الحواري): نعم ـ بإذن الله ـ قال الملك: إنه قد مات لي ابن منذ زمن فإن أحييته آمنت بك وإلا ضربت عنقك.

قبل(الحواري) كلام الملك.. فقام الملك يصحبه خلق كثير إلى المقابر، حتى وقف الجميع على قبر(الولد الميت) فأخذ

يدعو(الحواري) في الظاهر، ويُؤمّن طبيب الملك على دعائه في الباطن، وإذا بالقبر ينشق، ويقوم الولد من القبر حياً، ويقذف بنفسه في حجر أبيه الملك.

بهت الجميع لهذا الحادث، وفرح الملك أشد الفرح.

ثم توجّه إلى الولد، وقال له: أي بني! من الذي أحياك؟

توجه الولد إلى الجماهير الحاضرة، حتى وقعت عينه على (الحواري)، فقال: يا أبت إن هذا الذي دعا الله بإحيائي، ثم نظر نظرة أخرى إلى الجماهير، حتى وقعت عينه على(الطبيب) وقال يا أبت! إن هذا أيضاً كان يؤمّن على الدعاء.

وقد أحياني الله سبحانه ببركتهما.

هنا، آمن الملك، وآمن معه جمع غفير، وأعظم جماعةٌ أمر المسيح حتى قالوا فيه بالألوهية، لكن جماعة من اليهود الحساد، لم يبرحوا مقالتهم السابقة من الطعن في المسيح ورسله، وقولهم إن هؤلاء سحرة لا أكثر من ذلك.

* * *

وقد وقعت في زمن المسيح عليه السلام قصة تشبه القصة السابقة.

فقد أرسل المسيح عليه السلام إلى(أنطاكية) نفرين من تلاميذه، ليبشّرا

الناس بالدين الجديد وأمرهما أن يبدءا بالضعفاء، ثم الأقوياء، وأن لا يصطدما بالجبابرة في أول الأمر.

جاء الرجلان إلى(أنطاكية) فدخلاها في يوم عيد لهم، فوجدا أن القوم يعبدون الأصنام، فعجّل الرسولان على القوم بالتعنيف واللوم.

وهنا ثارت ثائرة الجبابرة، لما لاقت الأصنام من الإهانة، وتلقّوهم من التعنيف، وأمروا بالرجلين إلى السجن، بعد ما وشوا بهما إلى الملك.

وعرف(شمعون) وصي المسيح بأمر الرسولين، فجاء إلى أنطاكية، واخذ يجالس الضعفاء، والفقراء حتى التفّ حوله جمع منهم، وأخذوا يعتقدون بالدين الجديد، وانتهى أمر شمعون إلى الملك فسأل عن جلسائه: منذ متى وهذا الرجل في بلادي؟ قالوا منذ شهرين، فأمر بإحضاره، وحين أحضرو سأله الملك عن مسائل، تحبّب إليه شمعون في الكلام، حتى أحبّه ورأى الملك من عقله وذكائه ما أبهره، ولذا طلب منه أن يصاحبه ويلازمه.

قبل شمعون مصاحبة الملك، فقد كان هذا منتهى مقصده، إنه كان يريد أن يؤثر في قلب الملك، وذات مرة رأى الملك في منامه ما أدهشه وأفزعه، وحين استيقظ سأل(شمعون) عن تفسير منامه؟

ففسّره بما سرّ الملك، ومرة أخرى رأى رؤيا وفسّر المنام(شمعون) مما ازداد الملك علاقة به، بسبب تفسيره الحسن.

ولمّا علم شمعون أنه استولى على قلب الملك سأله ذات مرة قائلاً: أيها الملك إني قد سمعت أن في حبسك رجلين عابا عليك دينك، وفنّدا رأيك في عبادة الأصنام؟

أجاب الملك: نعم، وقصّ على شمعون قصة الرجلين.

قال شمعون: أيها الملك، مر بإحضار الرجلين، حتى نرى مقالتهما، ونسمع حجّتهما؟ وافق الملك على ذلك وأمر بإحضار الرجلين.. وجرى بين(شمعون) و(الرسولين) الحوار التالي:

شمعون: ماذا تقولان أيها الرجلان؟

الرسولان: إنا ندعو إلى نبذ عبادة الأصنام، وعبادة(الله) الإله الواحد الذي لا شريك له.

شمعون: هل يسمع هذا الإله دعوتكم إذا دعوتماه، ويجيبكما إذا سألتماه؟

الرسولان: نعم..

شمعون: هل يشفي لكما الرجل(الأبرص) إذا سألتماه ذلك؟

الرسولان: نعم.

قصة معركة بدر

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ـ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ـ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ ـ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ـ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ـ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ـ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ـ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ.

في البحث الروائي في الميزان ذكر في المجمع، قال ابن عباس: لما كان يوم بدر واصطف القوم للقتال قال أبو جهل: اللهم أولانا بالنصر فانصره، واستغاث المسلمون فنزلت الملائكة ونزل قوله: «إذ تستغيثون ربكم» إلى آخره. وقيل: إن النبي صلى الله عليه وآله لما نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال: اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض فما زال يهتف ربه مادا يديه حتى سقط رداؤه من منكبيه فأنزل الله: «إذ تستغيثون ربكم» الآية: عن عمر بن الخطاب والسدي وأبي صالح وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. قال: ولما أمسى رسول الله وجنه الليل ألقى الله على أصحابه النعاس وكانوا قد نزلوا في موضع كثير الرمل لا تثبت فيه قدم فأنزل الله عليهم المطر رذاذا حتى لبد الأرض وثبت أقدامهم وكان المطر على قريش مثل العزالي، وألقى الله في قلوبهم الرعب كما قال الله تعالى: «سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب».

أقول: لفظ الآية: «إذ تستغيثون ربكم» إلخ لا يلائم نزولها يوم بدر عقيب استغاثتهم بل السياق يدل على نزولها مع قوله

وقد اشتهر إحياء المسيح للأموات، وشفاؤه للأمراض، وخرقه للنواميس العادية إعجازاً. ولذا ازدلف إليه الناس من كل مكان، يطلبون الشفاء والإحياء منه.

ففي ذات مرة، اجتمع عليه ما يقارب الخمسين ألفاً من المرضى، فأبرأهم بإذن الله تعالى.

وفي قصّة أخرى: دخل دار دهقان، كان أضاف جمعاً، ومن المصادفات أنه لم يكن عنده ماء للأضياف، وكانت في دار الدهقان جرار مصطفّة، فمشى عيسى عليه السلام بين تلك الجرار وأخذ يضع يده على أفواهها، فامتلأت ماء بإذن الله تعالى.

وكان لعيسى عليه السلام صديق في أحد البلاد، فإذا مرّ المسيح بذلك البلد نزل عنده، وذات مرّة ورد البلد، ودخل دار الصديق، فلم يجده. فسأل عنه؟ قالت أُمه: إنه قد مات منذ زمان فقال لها عيسى عليه السلام وهل تحبين أن أحييه؟ فأجابت، وماذا تنتظر؟ وجاء المسيح في الغد وذهب مع الأم إلى المقابر، ثم دعا الله تعالى، فانتفض الرجل حيّاً بإذنه سبحانه، ثم قال المسيح إنه يعيش عشرين عاماً، ويتزوّج، ويولد له فكان كما قال عليه السلام.

ومرّ عيسى ـ ذات مرّة ـ في الشارع ـ فإذا بسرير يحمل، وعجوز

تبكي خلفه فدعا الله سبحانه لإحياء ولدها، وإذا بالولد يجلس على السرير حياً، مما أثار دهشة الناس ثم نزل على أعناق الناس، ولبس ثيابه، وذهب إلى أهله مع أمه، وتزوّج بعد ذلك، وولد له.

ومر عيسى في بعض سياحاته على قبر سام ابن نوح، فدعا الله سبحانه لإحيائه، فقام سام من القبر ينفض عنه غبار التراب، وقد شاب نصف رأسه.

وهكذا أخذ المسيح عليه السلام يزرع البلاد والقرى والأرياف وينشر فيها الأخلاق الحسنة والمواعظ والنصائح، والخوارق التي تبهر الألباب. وكان في الغالب يسافر مع تلاميذه من هنا إلى هناك، يرشد الناس إلى أمور دينهم، ودنياهم، ويهديهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

لكن اليهود كانوا كلّما رأوا منه فضيلة أو منقبة أو خارقة، ازدادوا حسداً وعتوا، وكانت تلك المعجزات تنقلب في نفوسهم إلى الحقد والغل، كالمطر الطاهر الذي إذا نزل على الجيفة، ازدادت عفونة ونتناً.

* * *

وفي ذات مرة(قال الحواريون) وكان بصحبتهم جمع كثير:(يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء)؟

غنيمة لهم. فلما سمع أبو سفيان بمسير النبيﷺ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم ويخبرهم أن محمدا قد تعرض لِعيرهم في أصحابه فخرج ضمضم سريعا إلى مكة. وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بثلاث ليال أن رجلا أقبل على بعير له ينادي يا آل غالب اغدوا إلى مصارعكم ثم وافى بجمله على أبي قبيس فأخذ حجرا فدهدهه من الجبل فما ترك دارا من دور قريش إلا أصابته منه فلذة فانتبهت فزعة من ذلك وأخبرت العباس بذلك فأخبر العباس عتبة بن ربيعة فقال عتبة: هذه مصيبة تحدث في قريش، وفشت الرؤيا فيهم وبلغ ذلك أبا جهل فقال: هذه نبية ثانية في بني عبد المطلب، واللات والعزى لننظرن ثلاثة أيام فإن كان ما رأت حقا وإلا لنكتبن كتابا بيننا: أنه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالا ونساء من بني هاشم. فلما كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت: يا آل غالب يا آل غالب. اللطيمة اللطيمة. العير العير. أدركوا وما أراكم تدركون إن محمدا

مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً) يوم عيد، فإن الناس يتخذون الأيام العظيمة التي تجدّد فيها نعمة عظيمة من الله عيداً، فيعيّدون ذكرى ذلك اليوم كل عام ـ كاتخاذ يوم ميلاد، أو نصر، أو ما أشبه، عيداً يعاد السرور والفرح فيه كل عام.

(لأولنا وآخرنا) يكون ذلك العيد لزماننا، وزمان من يأتي بعدنا،(و) يكون نزول المائدة(آيةً) علامةً دالّة على عظيم قدرتك(منك) يا رب(وارزقنا وأنت خير الرازقين) وهنا أجاب الله دعاء المسيح عليه السلام.

فـ(قال الله إني منزّلها) أي المائدة(عليكم فمن يكفر بعد) أي بعد نزول المائدة(منكم) فيشك في الألوهية أو نبوّة المسيح(فإني أعذبه عذاباً) شديداً(لا أعذّبه) أي لا أعذّب مثل ذلك العذاب في الشدة(أحداً من العالمين) لأنه كفر بعد المعاينة، وذلك عناد ولجاجة.

* * *

رأى الناس سفرة حمراء، بين غمامتين، تهوي من ناحية السماء إلى الأرض حتى وصلت ووقفت أمامهم، وكان عليها أرغفة، وسبع أسماك. فلما رآها عيسى عليه السلام بكى وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة. فوجدوا منها رائحة طيّبة، لم يجدوا مثل ذلك الطيب قبله. فقام المسيح عليه السلام وتوضأ وصلّى، ثم قال للحاضرين وهم

جمعٌ غفيرٌ: بسم الله! فأكل الجميع من ذلك الطعام حتى شبعوا. وكان هذا إعجاز آخر.

ومن الطبيعي أن يتذكّر الجميع هنا، ما سمعوه عن أسلافهم، من نزول المائدة ـ المن والسّلوى ـ على أجدادهم، ببركة الكليم موسى عليه السلام.. فقد أتى هذا النبي بمثل ما أتى به النبي من قبل، كما أن من الطبيعي أن يتذكّر الجميع قصة نزول المائدة على أمه(مريم) حين كان زكريّا عليه السلام كلّما دخل عليها وجد عندها رزقاً.. وقد كان من الطبيعي أيضاً أن يشبه نزول المائدة على الأمم السابقة، نزول المائدة على الطهر البتول فاطمة(عليها السلام) ـ في قصة طويلة ـ وينزل(الطير المشوي) على رسول الإسلام فيأكله هو والإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

لقد أكل من تلك المائدة المنزلة على المسيح عليه السلام، أكثر من ألف وثلاثمائة فقير ومريض وما أشبه من أهل الفاقة والعاهة ـ فقط ـ أمّا غيرهم فكثيرون. ولمّا أتمّوا الأكل، رجع الطعام كما كان، كأن لم يأكل منه أحد. ثم ارتفعت المائدة إلى السماء.

وهكذا كان، تنزل المائدة أربعين صباحاً، عنباً ـ يوماً دون يوم ـ يراها الناس وقت نزولها، ووقت صعودها، ويأكلون منها، ثم ترجع كما كانت بدون نقص.

وقد تكبّر الكبار أن يشتركوا مع الفقراء في الأكل، فقرّروا ـ ذات مرة ـ أن يستأثروا هم وحدهم بها، وان يمنعوا الفقراء منها، كما أنهم جعلوا يكفرون بها، لكن بعد هذا التقرير لم تنزل المائدة، وارتفعت إلى الأبد.. ومسخ جمع كثير منهم ـ جزاءً لكفرانهم وعتوّهم ـ قردةً وخنازير، فأصبحوا يسعون في الطرقات، ويأكلون العذرة والكناسات.. ثم لم يبقوا إلا ثلاثة أيام حتى هلكوا(١).

******



(١) القصص الحق.

معارك النبي وغزواته
معركة بدر

كان اليهود يعيشون في المدينة فهادنهم النبي صلى الله عليه وآله حتى يتفرغ لبناء دولة الاسلام، ونشر الدين الجديد، وفي السنة الثانية للهجرة المباركة، وبعد أن وطّد رسول الله صلى الله عليه وآله أركان الدولة، سعى لمحاربة المشركين، فالتقاهم عند بئر بدر حيث دارت بينه وبينهم معركة بدر الكبرى التي استغاث خلالها المسلمون بربهم، فأغاثهم كما حكى ذلك القرآن الكريم: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾.

وخسر المشركون أيما خسارة، ومرّغ المسلمون أنف قريش بوحل الهزيمة.

❋❋❋❋❋❋

معركة أحد

شعر اليهود والمنافقون بأن المسلمين ازدادوا قوة بعد انتصارهم في بدر، فأخذوا يتحرشون بهم في المدينة، وقد خافوا على سلطانهم وزعاماتهم. ولما ازدادت تحرشاتهم، حذرهم النبي ﷺ فاستكبروا، مما اضطر الرسول الكريم لمحاربتهم وإخراجهم من المدينة.

أما قريش فلم تتعظ من معركة بدر، فأخذت تعد العدة لمعركة جديدة، فأمر النبي ﷺ أصحابه بالخروج إليهم، ودارت بينهم وبين المسلمين معركة في جبل أُحد بالقرب من المدينة، أدّت إلى هزيمة المسلمين وإضعافهم، وتشجيع الأعداء عليهم، وأفسح في المجال لليهود، لحبك مؤامراتهم ودسائسهم.

فقد خرج زعماء اليهود إلى مكة، وحرضوا المشركين على قتال المسلمين، وراحوا يقولون للمشركين: «دينكم خير من دين محمد، وأنتم أولى بالحق» فأنزل الله فيهم: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾.

معركة الأحزاب (الخندق) وصلح الحديبية

واصل اليهود تأليب قبائل العرب على النبي والمسلمين فأقنعوا بني فزارة، وأشجع، ومرة، وبني سعد، وبني أسد وغيرهم، بمحاربة النبي وأصحابه، فاجتمع عشرة آلاف منهم تحت راية أبي سفيان...

علم النبي صلى الله عليه وآله بالأمر، فتشاور مع أصحابه، فأشار سلمان الفارسي قائلاً: «إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا» فاستصوب النبي رأي سلمان وبادر مع أصحابه إلى حفر خندق على عجل، حتى أنجزوه في ستة أيام، وعسكروا على مقربة منه، وعسكرت الأحزاب من المشركين واليهود في الجهة المقابلة، دون أن يجرؤوا على اقتحامه.

وطال الحصار، فبدأ السأم والملل يتسربان إلى نفوس المشركين، وأرادوا العودة إلى مكة، فعرف اليهود بذلك، فتوجه زعيمهم حيي بن أخطب إلى يهود بني قريظة في المدينة، وأقنعهم بأن ينقضوا ما كانوا عاهدوا النبي عليه، ويدخلوا الحرب ضده مع المشركين.

عرف الرسول صلى الله عليه وآله بالأمر فأرسل وفداً من المسلمين ليتأكد منه،

ولكن اليهود أساؤوا الأدب مع الوفد، وراحوا يشتمون النبي ودينه،...
واستبدّ الفزع بالمسلمين: ﴿وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾
وبدأ هجوم الأحزاب، فعبر عمرو بن عبد ود العامري الخندق مع نفر
من المشركين، فتصدى له علي بن أبي طالب عليه السلام وأرداه قتيلاً، وبعد
مقتل عمرو تطور سير المعركة، وامتنع اليهود عن مساعدة المشركين
خوفاً وهلعاً، فاستولى الرعب على المشركين وولوا الأدبار هاربين.

إنتصر المسلمون، ولم تعد قريش تفكر بمهاجمتهم، وظلّ اليهود
يتحينون الفرص للغدر وطعن المسلمين من الخلف، فما كان من
النبي إلا أن حاصر بني قريظة، وقضى عليهم بعد حصار دام خمسة
عشر يوماً، ثم إنه صلى الله عليه وآله عقد مع قريش صلح الحديبية لمدة عشر
سنوات، ليتفرد بيهود خيبر الذين كانوا يعدون العدة للإنقضاض
على المسلمين وهكذا تمّ للنبي صلى الله عليه وآله ما أراد من القضاء على اليهود،
وضمان حرية المسلمين في الحج إلى بيت الله في مكة.

❊❊❊❊❊❊❊❊

فتح مكة

إستتبّ الأمر لرسول الله ﷺ فبدأ بمكاتبة ملوك الدول المجاورة، فكتب إلى قيصر ملك الروم، وكسرى ملك فارس، وزعيم الأقباط بمصر وإلى النجاشي ملك الحبشة، والحارث الغساني ملك دمشق وإلى ملك صنعاء، وملك عُمان وملك البحرين، وغيرهم، فمنهم مَن استجاب لدعوة الله ورسوله إلى الإسلام كالنجاشي ملك الحبشة، وملك البحرين وملك اليمن، ومنهم من رفضها علواً واستكباراً، كملك الروم وملك الفرس وملك دمشق.

وبعد انتشار الاسلام بين العرب وغيرهم، اعتدت قبيلة محالفة لقريش على قبيلة محالفة للنبي ﷺ فقرّر النبي مقاتلة القرشيين فاستولت المخاوف عليهم، وأرسلوا أبا سفيان لتدارك الأمر، وتقوية العهد مع المسلمين، فلم تفلح جهود أبي سفيان، وعاد يجرجر أذيال الخيبة والخسران.

وأرسلت قريش عم النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب، ليستطلع الأمر، وكان العباس(رض) يبطن الاسلام ويتظاهر بالكفر، فعاد إليهم قائلاً لهم: هذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم به، فقال أبو سفيان:

فما ترى؟ قال: تطلبون الأمان من محمد.

قدم أبو سفيان ثانية ومعه العباس على النبي ﷺ يطلبان الأمان لقريش، فعرض عليهما الإقرار بأن: لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فلم يكن أمام أبي سفيان إلا الإقرار.

وأعلن رسول الله ﷺ أماناً عاماً لأهل مكة: «مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»، ثم إنه ﷺ دخل مكة ووقف على باب الكعبة قائلاً: «لا إله إلا الله وحدة لاشريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده... يامعشر قريش، ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً... أخٌ كريم وابن أخٍ كريم! فقال ﷺ: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لاتثريب عليكم اليوم يغفر لكم وهو أرحم الراحمين﴾ إذهبوا فأنتم الطلقاء.

وهكذا فتح رسول الله ﷺ مكة، وبادر إلى تكسير الأصنام وهو يتلو قوله تعالى: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا﴾.

******

ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم.

فلما أصبحوا عدل رسول الله ﷺ الصفوف وخطب المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده به يذكرون، وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغي به وجهه، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم تدركون به النجاة في الآخرة، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه فإنه تعالى يقول: لمقت الله أكبر من أنفسكم انظروا في الذي أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته وما أعزكم به بعد الذلة فاستكينوا له يرض ربكم عنكم، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه

فما كان من النبي ﷺ إلا أن استنفر المسلمين، وسار بنفسه على رأس جيش لقتال الروم، فما أن وصل إلى تبوك على الحدود الإسلامية الرومانية حتى هربت جموع الروم وولّوا إلى داخل بلادهم.

وعاد رسول الله ﷺ إلى مدينته المباركة، فأنزل الله سبحانه عليه سورة التوبة، يفضح فيها المنافقين والمتواطئين معهم، ويكشف خططهم للنيل من الاسلام والمسلمين، فأمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام بتبليغها في مكة، ثم إنّه ﷺ أمر بإحراق مسجد الضرار الذي كان المنافقون قد بنوه قاعدة للنفاق، وبذلك طويت آخر صفحة للشرك في مكة المكرمة في تلك الأيام.

******

إلى الرفيق الأعلى

حلَّ موسم الحج من السنة العاشرة للهجرة المباركة، فدعا خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله الناس إلى الحج، وسار بهم قاصداً حجَّ بيت الله الحرام، وبعد أن أدوا مناسكهم وتوجهوا إلى عرفة، وقف حبيب الله فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أما بعد أيها الناس... لاأدري لعليّ لا ألقاكم بعد عامي هذا... إنّ دماءكم وأعراضكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد... أيها الناس إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب خاطر، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنه نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض..أيها الناس إن ربكم واحد، وأباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب».

وفي طريق العودة إلى المدينة نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿يا أيها النبي بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته﴾، فاستوقف النبي الناس عند غدير خم ووقف على أعواد

نصبت له، بحيث يراه جميع الحاضرين، وأخذ بيد علي بن أبي طالبعليه السلام، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، يوشك أن أدعى فأجيب... أيها الناس إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين... فمن كنت مولاه، فهذا علي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه كيفما دار...»، فقال عمر بن الخطاب: «بخٍ بخٍ لك ياعلي، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة».

وعاد خاتم الانبياءصلى الله عليه وآله إلى المدينة، وراح يجهز الجيوش للفتح، ولكن المرض داهمه، واشتدّ عليه، ولم يلبث أن انتقل إلى جوار بارئه، ودفن في الحجرة التي توفي فيها.

وهكذا خسرت الانسانية بوفاة حبيب الله، شخصيّةً ملأت الدنيا نوراً وعطاءً، فسلام على خاتم الانبياء حبيب الله محمد وعلى آله الطاهرين(١).

******

(١) كتاب الأنبياء في القرآن.

فسجد لله شكرا. وفي الإرشاد للمفيد: ثم بارز أمير المؤمنين عليه السلام العاص بن سعيد بن العاص بعد أن أحجم عنه من سواه فلم يلبث أن قتله، وبرز إليه حنظلة بن أبي سفيان فقتله، وبرز إليه بعده طعيمة بن عدي فقتله، وقتل بعده نوفل بن خويلد وكان من شياطين قريش، ولم يزل يقتل واحدا منهم بعد واحد حتى أتى على شطر المقتولين منهم وكانوا سبعين رجلا، تولى كافة من حضر بدرا من المسلمين مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسومين قتل الشطر منهم، وتولى أمير المؤمنين عليه السلام قتل الشطر الآخر وحده. وفي الإرشاد: أيضا: قد أثبتت رواة العامة والخاصة معا أسماء الذين تولى أمير المؤمنين عليه السلام قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح فكان ممن سموه: الوليد بن عتبة كما قدمنا وكان شجاعا جريا وقاحا فتاكا تهابه الرجال، والعاص بن سعيد وكان هولا عظيما تهابه الأبطال، وهو الذي حاد عنه عمر بن الخطاب وقصته فيما ذكرناه مشهورة نحن نبينها فيما نورده، وطعيمة بن عدي بن نوفل وكان من رؤوس أهل الضلال، ونوفل بن خويلد وكان من أشد المشركين عداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله،

أنا خيرٌ منه، خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾. ﴿أأسجد لمن خلقت طينا﴾!.

ولما كان الله سبحانه وتعالى، يريد أن يُعبَدَ كما يُريد هو، ومن حي يريد، لاكما يريد إبليس اللعين هذا، صب عليه سوط عذاب، وطرده من الجنة، وحرّمها عليه، ومنعه من اختراق الحجب، التي كان يخترقها مع الملائكة عليهم السلام.

ولما رأى إبليس غضب الخالق عليه، طلب أن يجزيه الله أجر عبادته له آلاف السنين، وكان طلبه أن يمهله الله سبحانه في الدنيا إلى يوم القيامه، وهو ينوي الانتقام من هذا المخلوق الترابي، الذي حُرِمَ بسببه الجنة، وأصابته لعنة الله. كما طلب أيضاً، أن تكون له سلطة على آدم وذريّته، وظلّ يكابر ويعاند، ويدّعي أنّهُ أقوى من آدم، وخير منه: ﴿قال: أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ، لئِنْ أخّرتنِ إلى يوم القيامة، لأحتنكنَّ ذريته إلاّ قليلاً﴾.(١)

******

(١) المصدر السابق.

النبي إسماعيل عليه السلام الذبيح دعوة إبراهيم عليه السلام

يروي المؤرخون أن نبي الله إبراهيم عليه السلام كان متزوجاً من سارة أخت نبي الله لوط عليه السلام، وهي ابنة خالته، وأنه لم يرزق منها بولد طوال أكثر من عشرين عاماً، فدعا إبراهيم ربَّه قائلاً: ﴿ربِّ هب لي من الصالحين﴾.

وكانت سارة تعلم برغبة إبراهيم عليه السلام في أن يصبح أباً ويكون لهو لد يعينه في حياته ويرثه بعد مماته. وكانت لها جارية مصرية قبطية، اسمها هاجر، فوهبتها له، ليتزوجها عسى أن يتحقق له مايريد.

وهكذا حقق الله دعوة خليله إبراهيم عليه السلام، وحملت هاجر ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾، هو اسماعيل عليه السلام.

ارتفعت نفس هاجر بعد حملها، وراحت تتباهى وتتكبر على سيدتها سارة، فاغتاظت سارة ولحقتها الغيرة، فكانت تدور بينها وبين هاجر خلافات كالتي تحصل بين الزوجتين في البيت الواحد، ولكن إبراهيم عليه السلام كان يوفق بينهما في كل مرة.

وظلت الحال كذلك حتى ولدت هاجر إسماعيل عليه السلام وإبراهيم

عليه السلام في السادسة والثمانين من العمر، وسارة قد بلغت سن اليأس من الإنجاب، فتعاظمت غيرة سارة، وبات إبراهيمعليه السلام في حيرة في أمره، كيف يستطيع التوفيق بينهما وهو في هذا العمر شيخ كبير.

وبدأ إبراهيمعليه السلام يناجي ربه، ويطلب إليه أن يعينه ويساعدهُ، فبشره الله سبحانه بولدين آخرين تنجبهما سارة: ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. قالت: ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾.

بعد خمس سنوات على ولادة إسماعيلعليه السلام أنجبت سارة إسحاقعليه السلام وهكذا صار لإبراهيم ولدان: إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة... ولحكمة أرادها الله، وتحاشياً لما قد يقع بين الزوجتين وولديهما من الخلاف والمشاحنات أمر الله سبحانه خليله إبراهيمعليه السلام أن يخرج بإسماعيل وأمه هاجر، ويبتعد بهما عن سارة، التي اغتمت كثيراً وثقل عليها أمر هاجر وولدها إسماعيل، بعد أن صار لها ولد.

******

مضرب قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: لقد حضرنا بدرا وما فينا فارس غير المقداد بن الأسود، ولقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا من نام غير رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه كان منتصبا في أصل شجرة يصلي فيها ويدعو حتى الصباح.

أقول: والروايات في قصة بدر كثيرة جدا وقد اقتصرنا منها على ما يتضح به فهم مضامين الآيات، ومن الأخبار ما سيأتي إن شاء الله في تضاعيف البحث عن الآيات التالية المشيرة إلى بعض أطراف القصة.

*****

نهلك أنا وهذا الطفل جوعاً وعطشاً؟!

رق قلب إبراهيمعليه السلام وتحير في أمره، ولكنه تذكر أمر الله له، فماذا يفعل وهو إنما ينفذ ماأمره به ربه؟

وأشاح بوجهه عنها.. ولكن هاجر ألحت في السؤال، وظل إبراهيمعليه السلام منصرفاً عنها يناجي ربه.. ويأتي الجواب، جازماً حاسماً لاتردد فيه ولاتراجع: إن الله هو الذي أمرني بترككم في هذا المكان، وهو لاشك سيكفيكم..

لاذت أم إسماعيل بالصمت، ورضخت هي الأخرى لما أراده الله ثم قالت: إذن لايضيعُنا..

ورفع إبراهيمعليه السلام يديه بالدعاء متضرعاً إلى الله وهو يهم بالعودة: ﴿ رب إنّي أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم. وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾. ثم قفل عائداً إلى بلاد الشام حيث سارة، وقلبه يهوي إلى مكة.. إلى ولده وفلذة كبده إسماعيل الرضيع، ولاحيلة له إلاّ الدعاء والتضرع.

نفد التمر والماء من بين يدي هاجر... واشتدت حرارة القيظ فعطش الرضيع وطلب الماء ليشرب.. وراح يتلوى من الجوع والعطش فلم

تعد هاجر تطيق رؤية طفلها على هذه الحال، فراحت تنظر إليه وعيناها مغرورقتان بالدمع، لاتدري ماذا تفعل.. أتترك وليدها يقضي جوعاً وعطشاً؟ لا، لا، لن تقف مكتوفة الأيدي أمام هذا المصير... فلا بد أنها ستجد الماء.. فالله لن يضيعها وطفلها..

وقامت هاجر في الوادي في موضع السعي أيام الحج، ونادت هناك: هل في الوادي من أنيس، فلم يجبها أحدٌ غير الصدى..



بئر زمـــزم

انطلقت هاجر تبحث عن الماء في كل اتجاه. وكان الصفا أقرب جبل إليها، فصعدت عليه وراحت تنظر يمنة ويسرة وفي كل ناحية فلاح لها على المروى سرابٌ ظنته ماءً، نزلت عن الصفا وراحت تسعى مهرولة في الوادي باتجاه المروى، وفي ظنها أنها ستجد الماء.. ولكم كانت خيبتها حينما لم تجده شيئاً، فوقفت منهكة تنظر وتتفحص فلاح لها سرابٌ في الجهة الأخرى على الصفا وكأنه الماء فعادت مهرولة إلى الصفا ولكنها لم تجد هنالك شيئاً.

وهكذا في كل مرة، حتى فعلت ذلك سبع مرات وطفلها لم يفارق مخيلتها، ولم تكن تطيق أن يغيب عن ناظريها.. فلما كانت في المرة السابعة، وقد اشتد بها العطش، وأخذ منها التعب، وأنهكها المسير، دون أن تعثر على الماء.. نظرت إلى طفلها والدموع تكاد تطفر من عينيها، فإذا الماء ينبع من تحت قدميه، فأتته مسرعة وراحت تجمع حوله الرمل وهي تقول: زم زم. ثم أخذت تعب من الماء حتى ارتوت وانحنت على إسماعيل ترضعه.. فإذا بها تسمع صوتاً يقول لها: لاتخافي الضيعة، فإن ها هنا سيكون بيت لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، فقري عيناً، إن الله لايضيع أهله.

شيخا كبيرا قد ذهب بصره من الكبر فقال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، ما لي أسمع رغاء البعير ونهيق الحمير وخوار البقر وثغاء الشاة وبكاء الصبيان؟ فقالوا: إن مالك بن عوف ساق مع الناس أبناءهم وأموالهم ونساءهم ليقاتل كل منهم عن أهله وماله فقال دريد: راعي ضأن ورب الكعبة. ثم قال: ائتوني بمالك فلما جاءه قال: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك، وهذا يوم له ما بعده، رد قومك إلى عليا بلادهم، وألق الرجال على متون الخيل فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه وفرسه فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك لا تكون قد فضحت في أهلك وعيالك فقال له مالك: إنك قد كبرت وذهب علمك وعقلك. وعقد رسول الله صلى الله عليه وآله لواءه الأكبر ودفعه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وكل من دخل مكة براية أمره أن يحملها، وخرج بعد أن أقام بمكة خمسة عشر يوما وبعث إلى صفوان بن أمية فاستعار منه مائة درع فقال صفوان: عارية أم غصب؟ فقال صلى الله عليه وآله: عارية مضمونة مؤداة، فأعاره صفوان مائة درع وخرج معه، وخرج من مسلمة

الفتح ألفا رجل، وكان صلى الله عليه وآله دخل مكة في عشرة آلاف رجل وخرج منها في اثني عشر ألفا. وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله رجلا من أصحابه فانتهى إلى مالك بن عوف وهو يقول لقومه: ليصير كل رجل منكم أهله وماله خلف ظهره، واكسروا جفون سيوفكم، وأكمنوا في شعاب هذا الوادي وفي السحر فإذا كان في غبش الصبح فاحملوا حملة رجل واحد فهدوا القوم فإن محمدا لم يلق أحدا يحسن الحرب. ولما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه الغداة انحدر في وادي حنين فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحية، وانهزمت بنو سليم وكانوا على المقدمة وانهزم ما وراءهم، وخلى الله تعالى بينهم وبين عدوهم لإعجابهم بكثرتهم وبقي علي عليه السلام ومعه الراية يقاتلهم في نفر قليل ومر المنهزمون برسول الله صلى الله عليه وآله لا يلوون على شيء. وكان العباس بن عبد المطلب أخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله والفضل عن يمينه، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره، ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث في تسعة من بني هاشم، وعاشرهم أيمن بن أم أيمن، وفي ذلك يقول العباس:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا

وقولي إذا ما الفضل كر بسيفه على القوم أخرى يا بني ليرجعوا

وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه لما ناله في الله لا يتوجع

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله هزيمة القوم عنه قال للعباس وكان جهوريا صيتا اصعد هذا الظرب فناد: يا معشر المهاجرين والأنصار يا أصحاب سورة البقرة يا أهل بيعة الشجرة إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله. فلما سمع المسلمون صوت العباس تراجعوا وقالوا: لبيك لبيك، وتبادر الأنصار خاصة وقاتلوا المشركين حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الآن حمي الوطيس، أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، ونزل النصر من عند الله، وانهزمت هوازن هزيمة قبيحة ففروا في كل وجه، ولم يزل المسلمون في آثارهم. وفر مالك بن عوف فدخل حصن الطائف، وقتل منهم زهاء مائة رجل، وأغنم الله المسلمين أموالهم ونساءهم، وأمر رسول الله بالذراري والأموال أن تحدر إلى الجعرانة، وولى على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعي. ومضى صلى الله عليه وآله في أثر القوم فوافى الطائف في طلب مالك بن عوف فحاصر أهل الطائف بقية الشهر فلما دخل ذو

ملكاً على صورة شيخ جليل رزين، فقال إبراهيم عليه السلام: ياإبراهيم، ماتريد من هذا الغلام؟ قال عليه السلام: أريد أن أذبحه. قال الشيخ: سبحان الله! غلام لم يعص الله، ولم يأتِ مايستحق منك ذلك!

قال إبراهيم عليه السلام إنّ ربي هو الذي أمرني بذلك. فقال الملك الشيخ: ربك ينهاك عن ذلك وإنما أمرك به الشيطان. قال إبراهيم عليه السلام: ويلك إن الذي بلّغني هذا المبلغ هو الذي أمرني به.

وظل الشيخ يحاور إبراهيم عليه السلام ويقول له: ياإبراهيم إنك نبي إمام، فلئن أنت ذبحت إبنك، تبعك الناس من بعدك وصاروا يذبحون أولادهم.

لم يلتفت خليل الرحمن إلى كلام الشيخ، بل أقبل يستشير ولده إسماعيل عليه السلام في الذبح وكيف يكون، فقال إسماعيل: يا أبتاه، غط وجهي بخمار، واربط يدي ورجلي.. فقال إبراهيم عليه السلام: الوثاق مع الذبح!.. لا والله أجمعهما عليك، وأسلما لأمر الله.. وتلّ إبراهيم إسماعيل، وأضجعه على الأرض وأخذ السكين ووضعها على حلقه.. ورفع رأسه إلى السماء وجر السكين.. ولكن الله العزيز العليم، لم يكن ليترك إبراهيم يذبح ولده إسماعيل وهو يعلم صدق الأثنين وتسليمهما لأمره، وقد ظهر هذا التصديق جلياً واضحاً: ﴿فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه: أن ياإبراهيم قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي

قليل ولا كثير فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار وجدوا عليك في قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء فقال صلى الله عليه وآله: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ فقال: ما أنا إلا امرؤ من قومي فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فجمعهم فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فقام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر الأنصار أ ولم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. ثم قال: أ لا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ فقالوا: وما نقول؟ وبماذا نجيبك؟ المن لله ولرسوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم: جئتنا طريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فآمناك، ومخذولا فنصرناك. فقالوا: المن لله ولرسوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام. أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟

إسماعيل عليه السلام وزوجتاه

وتوفيت هاجر أم إسماعيل رضوان الله عليها، فدفنها إسماعيل عليه السلام في مكة قرب البيت الحرام، في المكان الذي يعرف اليوم بحجر إسماعيل.

ثم تزوج فتاة من جرهم، عاشت معه بعد وفاة أمه هاجر... وجاء إبراهيم عليه السلام بعد فترة ليتفقد أحوال ابنه وأهله، ولم يكن إسماعيل موجوداً في البيت، فوقف على امرأته دون أن تعرفه، وراح يسألها عن إسماعيل، فقالت: خرج يبتغي لنا.. وسألها عن أحوالهم وكيف يعيشون، فراحت تشك والضيق وتعلن أنهم في أسوأ حال.. ولم تستضفه، فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولي له يغير عتبة بابه.

وتركها إبراهيم عليه السلام وانصرف راجعاً، فلما جاء إسماعيل عليه السلام عرف أنّ إباه قد حضر، فسأل زوجته: هل جاءنا أحد اليوم؟ قالت: جاءنا رجل شيخ.. وراحت تصفه لهو ذكرت له ما سألها عنه، وأخبرته بما قالت هي له، فقال لها إسماعيل عليه السلام وهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: أوصاني أن أقرئك السلام، ويقول لك أن تغيّر عتبة بابك.

فقال إسماعيل عليه السلام: ذلك هو أبي، وقد أمرني أن أطلقك، وطلّقها فلحقت بأهلها، ثم تزوج بأخرى من قبيلة جرهم.

وعاود إبراهيم عليه السلام زيارته إلى بيت ولده إسماعيل عليه السلام، وكان إسماعيل خارجاً، فدخل فلم يجده ووجد زوجته، فرحبت به، واستضافته، فنزل وسألها عنه فقالت: خرج يطلب الرزق لنا. قال: كيف أنتم، وكيف تعتاشون؟ قالت: نحن بخير وسعة، والحمد لله، فقال إبراهيم عليه السلام وما طعامكم وشرابكم؟ قالت: أما طعامنا فاللحم، وأما شرابنا فالماء. فقال عليه السلام: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، ثم قال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السلام، وقولي له يثبت عتبة بابه ويستوص بها خيراً.

ولما رجع إسماعيل إلى بيته. سأل امرأته: هل زاركم أحد اليوم؟ قالت نعم، رجل شيخ حسن الهيئة، سألني عنك، فأخبرته أنك خرجت في طلب الرزق، وسألني عن حالنا وكيف عيشنا، فأبلغته أننا بخير وسعة من الله.

وسأل إسماعيل عليه السلام زوجته: هل أوصاك ذلك الشيخ بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرئك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك وتستوصي بها خيراً. قال: إنه أبي، وأنت عتبة الباب، وقد أمرني أن أثبتك في بيتي زوجة لي وأستوصي بك خيراً.

إسماعيل عليه السلام ينقل الحجارة لبناء البيت الحرام

غاب إبراهيم عليه السلام مدة لم ير خلالها ابنه إسماعيل عليه السلام، حتى أمره الله سبحانه وتعالى، أن يبني له بيتاً في مكة، يكون مثابة للناس.

ولم يعرف إبراهيم أين يبني البيت، وتحير في الأمر، فبعث الله عزوجل جبرائيل، فأشار إليه بالمكان المناسب، وجاءه بالقواعد من الجنة.

قصد إبراهيم عليه السلام منزل ولده إسماعيل، وأبلغه الأمر الإلهي، فقال إسماعيل عليه السلام: تبنيه وأساعدك.

وبدأ إسماعيل بنقل الأحجار، من ذي طوى وجبل أبي قبيس، وراح إبراهيم عليه السلام يبني البيت ويدعو مع إسماعيل: ﴿ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بناء البيت، حتى بلغ يوم بنائه تسعة أذرع، وقد جعلا له بابين: شرقياً وغربياً يسمى المستجار. ثم إنّ

جبرائيلعليه السلام دل إبراهيم على موضع الحجر الذي كان الله تعالى قد أنزله على آدم، والذي يروى أنه كان أشد بياضاً من الثلج، وإنما اسود بعدما لمسته أيادي الكفار، فأخذ إبراهيمعليه السلام الحجر الأسود ذاك، ووضعه في المكان الذي هو فيه اليوم.

وعند انتهاء إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام من بناء بيت الله الحرام، عهد الله إليهما أن يقوما على خدمته: ﴿... وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود﴾ وجعله مثابة للناس، وأمرهم باتخاذه مصلى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾.

ثم أمر الله سبحانه خليله إبراهيمعليه السلام أن يعلو ركناً من أركان البيت، وينادي في الناس: ألا هلم إلى الحج: ﴿وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق﴾.

❊❊❊❊❊❊

إسماعيل عليه السلام نبي الله

لما أحس إبراهيم عليه السلام بقرب وفاته، أوصى ابنه إسماعيل عليه السلام أن يقوم بخدمة بيت الله الحرام، ويدبر شؤونه، وهكذا كان فبعد وفاة إبراهيم عليه السلام، قام إسماعيل برعاية البيت والسهر على شؤونه.. ثم إن الله سبحانه وتعالى نبأه وأرسله إلى العماليق وقبائل اليمن. فأخذ ينهاهم عن عبادة الأوثان ودعاهم إلى عبادة الرحمن، الواحد الأحد الفرد الصمد، فآمن بعضهم وكفر آخرون.

وقد ذكر الله سبحانه نبيه إسماعيل عليه السلام في سبع من سور القرآن المجيد، هي على التوالي: سورة البقرة، سورة آل عمران، سورة النساء، سورة الانعام، سورة إبراهيم، سورة الأنبياء، وسورة ص.

أما إسماعيل الذي ورد ذكره في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنّه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾، إسماعيل هذا هو ابن حزقيل، كما أجمع عليه المؤرخون وليس إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وكان إسماعيل بن حزقيل هذا نبياً أيضاً، وسمي «صادق الوعد» لأنه وعد شخصاً أن ينتظره في مكان معين لايبرحه، فانتظره ولم يغادر المكان، فيما نسى ذلك الشخص موعده وجاء بعد سنين

ليجد إسماعيل عليه السلام لايزال في انتظاره، يأكل مما أنبته له الله من الأعشاب.

ويروى في قصة إسماعيل هذا، أنّ عابد بني إسرائيل الذي كان يقضي حوائج الناس عند الملك هو الذي وعده، وأنه نسي وعده وهو عند الملك، وأن الملك خرج ذات يوم للتنزه كعادته وقد اصطحب معه أعوانه ومنهم العابد هذا، وبينا هم يتجولون في البرية وقع نظر العابد على إسماعيل، فتقدم إليه وقال له: إنك لاتزال هاهنا ياإسماعيل؟ قال إسماعيل عليه السلام: ألم تقل لي إنتظرني ها هنا؟ فها أنا منتظرك، فتعجب الملك مما رأى وتساءل كيف يبقى إنسان إلى الحول في مكانٍ واحد. فاخبره إسماعيل عليه السلام أنّ الله قد أظله بغمام، وأجرى له عين ماءٍ، وأنبت له من بقل الأرض ماكان يقتات به.

وكان مع الملك رجل جبارٌ لم يستطع أن يفهم كيف أنّ إسماعيل قضى سنة كاملة في ذلك المكان، فقال للملك: سيدي الملك إنّ هذا الرجل لكذّاب، فلقد مررت أنا بهذه البرية منذ مدة فلم أرَ أحداً هنا، وإنما كان يروح ثم يعود إلى هذا المكان.

وكانت لإسماعيل هذا عليه السلام كرامة عند الله تعالى، كما لكل نبي من الأنبياء، فقال للجبار: إن كنت تكذب عليَّ فيما تقول، نزع الله صالح ما أعطاك، فلم يلبث أن تناثرت أسنان ذلك الجبار، واعترف بكذبه، ثم توسّل إلى الملك أن يطلب من إسماعيل، أن يسامحه ويدعو الله

أن يرد عليه أسنانه، لأنه شيخ كبير السن ولا يمكنه العيش دون أسنان. فطلب الملك إلى إسماعيل أن يدعو ربه أن يعيد للرجل أسنانه، فقال إسماعيل عليه السلام سأفعل. قال الملك: بل الساعة. قال إسماعيل عليه السلام: إنني أفضّل أن أؤخره لوقت السَّحر، لأن أفضل أوقات الدعاء وقت السحر.

وهكذا، دعا إسماعيل ربه فردّ على الرجل أسنانه.

ويروي أنّ أهل مكة كانوا يفتشون عن إسماعيل لايعرفون له مكاناً، وهو قائم في المكان الذي وعد عابد بني إسرائيل أن يجده فيه، إلى أن عثر عليه رجل منهم. فقال له: يانبي الله، لِمَ تركتنا وتخليت عنا، فلقد ضعفنا بعدك وكدنا نهلك؟ قال إسماعيل عليه السلام: لقد وعدت رجلاً أن ألاقيه في هذا المكان، ولن أغادر من هنا قبل أن يعود ونلتقي.

لما سمع الرجل ذلك من إسماعيل، أسرع إلى قومه يخبرهم بأمره وأمر الوعد، فخرجوا يبحثون عن الرجل حتى وجدوه، فقالوا له: مالك أيها الرجل تعد ولاتفي، لقد وعدت إسماعيل أن تلاقيه في مكانه وأخلفت وعدك، فهرع الرجل إلى مكان إسماعيل عليه السلام وقال له: يانبي الله، إنني نسيت موعدك، ولم أتذكر لو لم يذكّرني هؤلاء.

فعزم موسى أن يلقى العالم ويتعلم منه بعض ما عنده إن أمكن وأخبر فتاه عما عزم عليه فخرجا قاصدين مجمع البحرين وقد حملا معهما حوتا ميتا وذهبا حتى بلغا مجمع البحرين وقد تعبا وكانت هناك صخرة على شاطىء البحر فأويا إليها ليستريحا هنيئة وقد نسيا حوتهما وهما في شغل منه.

وإذا بالحوت اضطرب ووقع في البحر حيا، أو وقع فيه وهو ميت، وغار فيه والفتى يشاهده ويتعجب من أمره غير أنه نسي أن يذكره لموسى حتى تركا الموضع وانطلقا حتى جاوزا مجمع البحرين وقد نصبا فقال له موسى: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

فذكر الفتى ما شاهده من أمر الحوت وقال لموسى: إنا إذ أوينا إلى الصخرة حي الحوت ووقع في البحر يسبح فيه حتى غار وكنت أريد أن أذكر لك أمره لكن الشيطان أنسانيه أو إني نسيت الحوت عند الصخرة فوقع في البحر وغار فيه.

قال موسى: ذلك ما كنا نبغي ونطلب فلنرجع إلى هناك فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا عبدا من عباد الله آتاه الله رحمة من

الذي قال: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن عدنان بن أد بن أود بن ناحور بن يعور بن يعرب بن يشجب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن بن تارخ، إلخ....

من هنا يعلم فضل نبي الله إسماعيل عليه السلام، حيث أنه كان من صلبه شجرة النبوة المباركة، والأشخاص الذين من أجلهم خلق الله سبحانه الأرض ومن وماعليه، وهم أهل البيت حبيب الله محمد وأولاده من ابنته فاطمة عليها السلام وزوجها ابن عم النبي علي بن أبي طالب عليه السلام. من هنا إذاً كرامة إسماعيل عليه السلام عند الله حتى افتداه بذبح عظيم كما مرّ معنا، ليحفظ سبحانه شجرة النبوة المباركة والأئمة الميامين.

ويذكر أن نبي الله إسماعيل عليه السلام لما أحس بدنو أجله، أوصى إلى أخيه إسحاق بتدبير شؤون البيت الحرام، وتوفي سلام الله عليه، ودفن في المسجد الحرام في المكان الذي فيه الحجر الأسود.

فسلام الله على إسماعيل إنه كان نبياً رسولاً وكان من الأخيار وكان من الصابرين(١).

---

(١) المصدر السابق.

النبي إسحاق عليه السلام البشارة
ولادة إسحاق عليه السلام

بعدما طغى بوم نبي الله لوط عليه السلام، بعث الله عزوجل ثلاثة من ملائكته، ليتزلوا بهم العذاب الذي يستحقونه، فمروا بإبراهيم عليه السلام، وكان متزوجاً من سارة بنت بتوايل بن ناحور إبنة عمه وابنة خالته، وكان قد بلغ من الغمر عتياً، دون أن يرزق منها بولد.

وعمد خليل الرحمن عليه السلام إلى عجل سمين أتى به وذبحه إكراماً لأضيافه، وهو لايعرف أنهم من الملائكة، ولماذا جاؤوا. فلما انتهى من إعداد الطعام، وقدمه للضيوف، فوجئ عليه السلام بأن الضيوف لايأكلون.. فأوجس منهم خيفة، وبدت عليه علامات الخوف والإستغراب، فأدرك الملائكة ذلك فقالوا له: ﴿لاتخف إنا رسل ربك إلى قوم لوط﴾.

هدأ روع إبراهيم عليه السلام قليلاً ولكنه جاهر بخوفه قائلاً: ﴿إنا منكم وجلون﴾. وعاد الملائكة إلى طمأنة خليل الله عليه السلام فقالوا له: ﴿لاتوجل إنا نبشرك بغلام عليم﴾.

كان إبراهيم عليه السلام قد بلغ سن الهرم واليأس من الإنجاب، وكانت زوجته سارة هي الأخرى واقفة لاتصدق ماتسمع أذناها، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أبَشرتموني على أن مسّني الكبر! فبم تبشرون﴾ وقالت سارة: ﴿ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً! إن هذا لشئ عجيب﴾ فما كان من الملائكة إلا أن أكدوا لهما حصول الولادة في هذا الوقت قائلين: ﴿أتعجبين من أمر الله؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾. ﴿كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾.

وبعد ولادة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام بخمس سنوات وبعد أن بلغ خليل الله إبراهيم مئة وعشرين سنة من العمر، ولد إسحاق بن إبراهيم عليه السلام غلاماً عليماً ثم شاباً صادقاً وسيماً كأن وجهه شقة قمر، ومن ثم ﴿نبياً من الصالحين﴾.

******

قصة الخضر عليه السلام

لم يرد ذكره في القرآن إلا ما في قصة رحلة موسى إلى مجمع البحرين، ولا ذكر شيء من جوامع أوصافه إلا ما في قوله تعالى.

«فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما»: الآية - ٦٥ من السورة والذي يتحصل من الروايات النبوية أو الواردة من طرق أئمة أهل البيت في قصته ففي رواية(١)

(١) في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) في حديث: أن موسى لما كلمه الله تكليما، و أنزل عليه التوراة، و كتب له في الألواح من كل شيء موعظة و تفصيلا لكل شيء، و جعل آية في يده و عصاه، و في الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم و فلق البحر و غرق الله فرعون و جنوده عملت البشرية فيه حتى قال في نفسه: ما أرى الله عز و جل خلق خلقا أعلم مني فأوحى الله إلى جبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يهلك، و قل له: أن عند ملتقى البحرين رجلا عابدا فاتبعه و تعلم منه. فهبط جبرئيل على موسى بما أمره به ربه عز و جل فعلم موسى أن ذلك لما حدثته به نفسه فمضى هو و فتاه يوشع بن نون حتى انتهيا إلى ملتقى البحرين فوجدا هناك الخضر يعبد الله عز و جل كما قال الله في كتابه: «فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا - و علمناه من لدنا علما» الحديث.

محمد بن عمارة عن الصادق عليه السلام: أن الخضر كان نبيا مرسلا بعثه الله تبارك وتعالى إلى قومه فدعاهم إلى توحيده والإقرار بأنبيائه ورسله وكتبه، وكان آيته أنه لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلا أزهرت خضراء وإنما سمي خضرا لذلك، وكان اسمه تاليا بن مالك بن عابر بن أرفخشد بن سام بن نوح الحديث ويؤيد ما ذكر من وجه تسميته ما في الدر المنثور، عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: إنما سمي الخضر خضرا لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء.

وفي بعض الأخبار كما فيما رواه العياشي عن بريد عن أحدهما(عليهما السلام): الخضر وذو القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيين الحديث لكن الآيات النازلة في قصته مع موسى لا تخلو عن ظهور في كونه نبيا كيف؟ وفيها نزول الحكم عليه.

ويظهر من أخبار متفرقة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه حي لم يمت بعد وليس بعزيز على الله سبحانه أن يعمر بعض عباده عمرا

طويلا إلى أمد بعيد ولا أن هناك برهانا عقليا يدل على استحالة ذلك.

وقد ورد في سبب ذلك في بعض الروايات من طرق العامة أنه ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال، وفي بعضها أن آدم عليه السلام دعا له بالبقاء إلى يوم القيامة، وفي عدة روايات من طرق الفريقين أنه شرب من عين الحياة التي هي في الظلمات حين دخلها ذو القرنين في طلبها وكان الخضر في مقدمته فرزقه الخضر ولم يرزقه ذو القرنين، وهذه وأمثالها آحاد غير قطعية من الأخبار لا سبيل إلى تصحيحها بكتاب أو سنة قطعية أو عقل.

وقد كثرت القصص والحكايات وكذا الروايات في الخضر بما لا يعول عليها ذو لب كرواية خصيف: أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في السماء: عيسى وإدريس، واثنان في الأرض الخضر وإلياس فأما الخضر فإنه في البحر وأما صاحبه فإنه في البر.

ورواية العقيلي عن كعب قال: الخضر على منبر بين البحر الأعلى والبحر الأسفل، وقد أمرت دواب البحر أن تسمع له

وفاة إسحاق عليه السلام

عاش إسحاق عليه السلام، محباً لولديه، متعلقاً بهما، بحيث كان دائم الدعاء لهما، فقد كان عليه السلام يدعو لولده العيس بالملك والسلطنة في ولده ومن تبعه، وفي المقابل كان يدعو لولده يعقوب بالرياسة على إخوته وأهله والنبوة في ولده..

وعمَّرَ إسحاق عليه السلام كثيراً، حيث فقد بصره قبل أن يوافيه أجله وله من العمر مائة وخمسة وثمانون عاماً، توفي بعدها في مسقط رأسه فلسطين، ودفن فيها مع والده إبراهيم الخليل عليه السلام في جيرون على بعد ثمانية عشر ميلاً من بيت المقدس في المسجد المعروف بمسجد إبراهيم الخليل عليه السلام. فسلام الله عليه وعلى والده خليل الرحمن(1).

****

(1) المصدر السابق.

النبي شعيب عليه السلام
خطيب الانبياء

شعيب في قومه

قلَّما اختلف المؤرخون والمفسّرون في شخصيَّة نبيّ ونسبه، اختلافهم في النبي شعيب.

فهو شعيب ابنُ توبَةَ، عند بعض المفسرين...

وشعيب ابنُ أيوبَ، عند بعض المؤرِخين...

وشعيب ابن ميكيلَ، عند قومٍ آخرين...

قيل: أُرسِل مرَّةً... وقيلَ: بل مرَّتين: إلى أهلِ مَدْينَ، وإلى إصحاب الأيكة.. وأهلُ مدين عربٌ، كانوا يقيمون في أرضٍ معانَ من أطرافِ الشَّام.

أما الأيكة، ففيها اختلاف أيضاً، ويرجَّحُ بأن تكون بلدةَ(بليدا) في

جنوبي لبنان،ـ كما مرَّ معنا، آنِفاً، في قصة النبيّ موسى(عليه السلام)ـ

وكان أهلُ مدينَ يعتمدونَ التِجارة موردَ رزقٍ لهم، وسبيلَ عيش وحياةٍ، فكانت تدر عليهم خيراً-وفيراً ولكنَّهم، لم يُراعوا حقوقَ الله في تجارتِهم، هذه، إذ كانوا لايوفون كيلاً ولا ميزاناً، وكانوا يبخَسونَ الناسَ أشياءَهم، ويعيثون في الأرضَ فساداً..

فتبرَّأ شُعيب من هؤلاءِ المفسدين.. فما هَكذا أمَرَ الله الناسَ به في معاملاتٍ فيما بينهم، وفي عباداتٍ!..

إنْ هؤلاءِ القومُ إلاَّ في ضَلاَلٍ مبينٍ!..

واعتزَلَ شعيبُ قومَه متأمِّلاً خلق السموات والأرضِ، فهدتْه الفِطرَةُ إلى إلهٍ واحدٍ فآمنَ به، وأسلم إليه وجهَهُ، بعيداً عن قومِهِ الذينَ يَظْلمون الناس، وأنفسَهم، معاً...

وقذفَ الله النورَ في قلبِهِ فملأهُ إيماناً ويقيناً.. ثم، ما لبثَ أن أرسلَه إلى قومِهِ، نبيّاً، يدعوهم إلى صراطِ العزيز الحميد!..

ويروي بعضُ كبارِ المفسرينَ بأن شعيباً كان كثيرَ الصَّلاةِ، فهي السَّبيلُ إلى الله، وهي حبلُه المتين، وهي الصِلة الوثقى بين أرضٍ وسماءٍ!.. وكثيراً ماكان يقول:

- «إن الصَّلاةَ رادعةٌ عن الشرَ، ناهيةٌ عن الفحشاءِ والمنكَرِ، والصَّلاة هي الدين!..»

وبهذا المعنى ذاتِه، حتى الألفاظ نفسها، تَتَالَتْ آياتُ جَمَّةٌ من القرآنِ الكريمِ..

يضافُ إلى ذلك، أنَّ شعيباً كان في عزّ من قومِهِ وعشيرته»... فما من نبيَ، بعدَ لوطٍ، إلاَّ وهوَ عزيزٌ في قومِهِ، منيعٌ في عشيرتِهِ...



شعيب النبي

ابتدأ شعيب دعوته بالتقرُّب إلى قومه، محاولاً استمالةَ قلوبِهم، مذكّراً إيَّاهم بما تربطه بهم من أواصرِ قربى، وروابطِ دمٍ!. فتلطّف إليهم بالقول الجميلِ، والحوارِ اللَّطيف،... ولمَّا أنِسَ منهم ميلاً إليه، أعلنَ فيهم نبوَّتَه، وشَهَرَ بينهم دعوتَه،...

أما عنوان هذه الحركة المباركة، فكان: الإصلاح!. فهو لايبتغي عن الإصلاح بدلاً، ولا يرضىَ عنه حولاً!..

وأخذ يذكّرهم بأنْعُمِ الله عليهم:

فهم في غنى بعد فقر، وفي كثرةٍ بعد قلَّةٍ، وفي قوَّةٍ بعد ضعفٍ، وفي عزّ بعد وهنٍ، وفي أمنٍ بعد خوفٍ، كما كان يخوِّفُهم عذابَ الله وانتقامَه، وبطشَه الشَّديد.. فلم يجد أذناً -لِمَا يقولُ- صاغيةً، ولاعقولاً -لما يعرضُ عليهم- واعيةً.. بل أنكروا عليه دعوتَه، وامتلأت قلوبهم حسداً له، وَوَجْداً(أي: حقداً) عليه..

فما لهذا النبي ينهاهم عن الرِّبح السريع، لايكاد يحسُّ به أحدٌ، في تطفيف مكيالٍ وميزانٍ.. ويدعوهم إلى عبادة إلهٍ، لاعهدَ لهم، ولا

لآبائِهم، بهِ، من قبل؟.. إنْ يقولُ إلاَّ افتراءً وبُهتاناً.. وما هو - بزعمِهم- إلاَّ ساحرٌ كذَّابٌ!..

وهذه -كما نرى- مقولةُ من سبقَهم، ومن تلاهم، من الكفرةِ الملحدين، الَّذين أعمى الله أبصارهم، وجعل في آذانهم وقراً(أي: ثقلاً في السمع، كالصمم)، وعلى قلوبهم أكنَّةً(أي: أغشيةً. غشاء)، فهم لايفقهون!..



شعيب يُحَاجُّ قومهُ، وينذرهم

ولجأ شعيبٌ إلى الحجَّةِ يقارع قومه بها. ويدحضُ افتراءاتِهم، ويُبطِلُ دعاواهم..

وكان نبيُّ الله شعيبُ خطيباً بارعاً، ومُفَوَّها بليغاً، يتفجَّرُ لسانُه بالحكمةِ، تصدُرُ عن قلبٍ يفيضُ بها، كالينبوع الدافق، لاينضبُ له معينٌ، ولاينقطعُ عن عطاءٍ!.

فقد «كان شعيبٌ خطيبَ الأنبياءِ» كما ينعتُهُ بذلك خاتمُ الرسل والأنبياء، محمد صلى الله عليه وآله.

ولنتأمَّل هذا الحوار الطَّويل، يدورُ بينَ شعيبٍ وقومِهِ، على امتداد ساعاتٍ طوالٍ.، في نادي مدين، وقد ازدحم فيه خلقٌ كثيرٌ..

ولَعمري، إنه لَحوارٌ يجعلنا نُلمُّ بدعوة شعيبٍ جملةً وتفصيلاً.. ويلقي الضوءَ على فكرٍ له نيّر، وقلبٍ، له، كبيرٍ، فهو مسدَّد في قوله، مصيب دائماً، وهو محاورٌ بارعٌ، ومناقشٌ لَبِقٌ، له في الحوارِ، أخذاً وعطاءً، باعٌ طويلٌ!..

- ياقومُ!.. لقد أرسلني الله تعالى إليكم، داعياً إياكم إلى عبادتهِ.. فهو الذي خلقكم وخلق آباءكم الأوّلين، وهو المُحيي والمميت، والمبدئُ والمعيد. ربُّ العرشِ العظيم.. فآمنوا به، ودعوا ما أنتم فيه من ضلالٍ مبين!..

أنظروا إلى خلق السّموات والأرض». وانظروا إلى خلقِ أنفسكم».. تجدوا أنّ وراء ذلك خالقاً قديراً، ومدبّراً عليماً.. فإيّاه اعبدوا، وعليه توكّلوا، ولاتدعو إلاّ إيّاه إن كنتم مؤمنين!..

- وبم جئتنا به، غيرَ ذلك، في شريعتك، ياشعيبُ؟.

- ياقومُ!.. إني أراكم بخيرٍ: مالٌ وفيرٌ، وزينةُ دنيا، ورخص أسعار!. فأوفوا الكيل والميزان، وأدّوا حقوق الناس على التّمام، في المعاملات، ولاتبخسوهم أشياءهم»..

ألا ترون أنكم اذ تطفّفون(أي: تنقصون) الكيل والميزانَ، على النّاس كأنّكم تسرقون ماليس يحلُّ لكم.. وتخونون ما أنتم عليه مؤتمنون؟ أو ترضون لأنفسكم، من تطفيف كيلٍ وميزانٍ، ما ارتضيتموه لغيركم؟..

- لا، ياشعيب!..

- فلم الظلم إذاً، وأكلُ حقوق النّاس بالباطل؟

- إنّها التجارة، ياشعيب، والرّبح- أو ليست التجارة باباً من أبواب الرّبح الوفير؟

- بلى، إنها لكذلك.. ولكن، ضمن مبدأين: صدقِ المعاملةِ، والأمانةِ.. فإن كذبتم، في تجارتكم، وخنتم في معاملاتكم، تحوّلت تجارتكم إلى لصوصيّة وغدرٍ.

- أو لا ترى ياشعيب، بأنّنا إن تحوّلنا عمّا نحن فيه، في معاملاتنا التجاريّة، مع الآخرين، إلى ماتدعونا إليه، قلَّ حظُّنا من الرّبح، وشحَّ رزقُنا؟..

- هذا ظن الذين كفروا بربّهم، واستحبُّوا الحياة الدُّنيا على الآخرة.. فالله هو الرزّاقُ ذو القوّة المتينُ، وهو الكفيل - وأنا بذلك زعيم(أي: ضامن)- بأن يمدَّكم، إن اتّبعتم سبيله، بخير الدنيا ونعيم الآخرة... بقيَّةُ الله خيرٌ لكم، إن كنتم تعلمون!.

- لانفهمُ ياشعيب ماتقول!.

- أقول: اتَّقوا الله يؤتكم من لدنْهُ رزقاً حسناً، وابتغوا عند الله الرّزقَ، ولاتكونوا من المطففين.

ثم، إنّ التجارة بابٌ من أبواب المعاملات، عريضٌ، كما تعلمون،، والمعاملةُ أخلاقٌ قبل أي شيٍ آخر!.

ويقطع الحوارَ صوتُ شيخٍ مهيبٍ، أجشُّ، وقد ضاق بهذا الحوار ذرعاً:

- أصلاتُك تأمرك بذلك ياشعيب؟ أو تريدُنا أن نترك ما كان يعبدُ آباؤنا من قبلُ، وما نشأ عليه، من بعدِهم، صغارُنا.. ونَغُلَّ أيدينا عن حرِّيَّة التصرُّف بأموالنا، نفعلُ بها مانشاء؟..

الصلاةُ: هي الدين، وهي عبادةُ ربِّ العالمين.. وما أعبدُ إلاَّ الله فاطِرَ السَّموات والأرضِ والخلقِ أجمعين.. وما عدا ذلك فكفرٌ وبهتان.. وضلالٌ وخسران..

أما المال، الحق فهو مانالته أيديكم من وجهٍ طيِّبٍ، ورزقٍ حلال.. أمّا ماطالته أيديكم بالمكر والخديعة، والكذب والخيانة، فهو سحتٌ وحرام.. فاتّقوا الله، واعلموا أن الحياة لاتدوم، وكلنا إلى الموت صائرون!..

والمالُ ظلٌّ زائلٌ، وبهرجٌ حائلٌ..

فكم من غني ممسٍ أصبح مفتقراً!..

وكم من فقير مصبحٍ أمسى ثرياً!..

- كنَّا نَعُدُّك بيننا الحليمَ الرَّشيد، ومانراك الآن كذلك يا شعيب!..

- ياقوم!.. أرأيتم إن آتاني الله النبوَّةَ، والهدايَة، ووسَّع عليّ من

لدنه رزقاً كثيراً.. فهذا من عميم فضله، وواسع رحمته.

وأنا - كما ترون- أطلب من نفسي ما أطلبه منكم.. آمراً إيّاها بما آمركم به، وناهياً إياها عمّا أنهاكم عنه...

فمن جرّب عليّ، منكم، قولاً لم أفعله، أو دعوةً لم ألزم بها نفسي، أوّلاً...؟

﴿إن أُريدُ إلاّ الإصلاحَ ماستطعتُ وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلتُ وإليهِ أنيبُ﴾

وإنّ أخوفَ ماأخافُ عليكم، أن تُمعنوا في شقاقكم، وتسدُروا في غيّكم وضلالكم، وتحملكم عداوتي على مخالفة ربّكم، فيصيبكم مثل ما أصابَ الّذين من قبلكم:

فهؤلاء قومُ نوحٍ- كما تواترت عنهم الأنباء والأخبارُ- قد أخذهم الطوفانُ فأصبحوا غرقى..

وقومُ هودٍ، وقد أرسلَ الله عليهم الرّيح العقيم فأصبحوا في ديارهم جاثمين..

وقوم صالحٍ، زلزل الله الأرض بهم، فأصبحوا أثراً بعد عين..

وما لي أذهبُ بعيداً في التّاريخ السحيق.. فهؤلاء قوم لوطٍ، أقربُ

الأمم إليكم داراً ومكاناً، وأحدثهم بكم عهداً وزماناً، وقد جعل الله عالي أرضهم سافلها، فلا تُرى لهم أوطانٌ!..

ويتدخّلُ في الحوار بعضُ الفتيان، وقد بانت سواعدُ لهم مفتولة..

﴿قالوا: ياشيعبُ مانفقهُ كثيراً ممّا تقول، وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾

وينتفضُ شعيب في وجوه هؤلاء الفتيان الحَمقى..

لقد انقطعت حجّة الشيوخ المحنّكين، فقطع هؤلاء الأغرار الجهّالَ بعنجهيّتهم، وغرورهم نقاشاً مفيداً، وحواراً يوضح الحقائق، ويجل والشُّبهات..

- ويحكم.. أعشيرتي وقومي، أعظمُ حرمةً لديكم من الله الذي ﴿اتّخذتموه وراءكم ظهريًا﴾؟ أو لأجل عشيرتي تمتنعون عن أذاي؟ فهلاّ كان ذلك ابتغاءَ وجه الله؟ فانتظروا أمر الله، ﴿وارتقبوا إني معكُم رقيبٌ﴾.

[قال علي بن موسى الرضاعليه السلام: «ماأحسن الصبر وانتظار الفرج!.. أما سمعتَ قولَ العبدِ الصالح: «وارتقبوا إني معكم رقيب»؟

وتعلو أصوات كالهدير:

- ﴿قالوا إنّما أنت من المسحّرين. وما أنت إلاّ بشرٌ مثلنا وإن

نظنُّك لمن الكاذبين. فأسقط علينا كسفاً من السّماءِ إن كنتَ من الصّادقين﴾

﴿قال ربّي أعلمُ بما تعملون﴾.

وهكذا لم تغن بلاغةُ شعيب، وفصاحةُ منطقِه، وبيانُ حُجَّتِهِ، عنهُ، شيئاً!.. فقد انتهى وقومَهُ إلى ما ابتدأوا به من حوار.. فكلٌّ على موقفه ثابت لايتزحزحُ عنه قيد أنملة.. وليت الأمرَ توقف عند هذا الحد.. وليتَ السّتارَ أُسدل على هذا المشهد!..



❋❋❋❋❋❋

الغار، وجاء فارس من الملائكة ثم قال: ما في الغار أحد فتفرقوا في الشعاب، وصرفهم الله عن رسوله ﷺ ثم أذن لنبيه ﷺ في الهجرة.

أقول: وروي ما يقرب من هذا المعنى ملخصا في الدر المنثور عن ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم والبيهقي معا في الدلائل عن ابن عباس لكن نسب فيه إلى أبي جهل ما نسب في هذه الرواية إلى الشيخ النجدي ثم ذكر أن الشيخ النجدي صدق أبا جهل في رأيه واجتمع القوم على قوله.

وقد روي دخول إبليس عليهم في دار الندوة في زي شيخ نجدي في عدة روايات من طرق الشيعة وأهل السنة.

وأما ما في الرواية من قول أبي كرز لما اقتفى أثر رسول الله ﷺ: «هذه قدم محمد، وهذه قدم ابن أبي قحافة، وهاهنا غير ابن أبي قحافة» فقد ورد في الروايات أن ثالثهما هند بن أبي هالة ربيب رسول الله ﷺ وأمه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

وقد روي الشيخ في أماليه، بإسناده عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه وعبد الله بن أبي رافع جميعا عن عمار

بن ياسر وأبي رافع وعن سنان بن أبي سنان عن ابن هند بن أبي هالة، وقد دخل حديث عمار وأبي رافع وهند بعضه في بعض، وهو حديث طويل في هجرة النبي صلى الله عليه وآله وفيه: واستتبع رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر بن أبي قحافة وهند بن أبي هالة فأمرهما أن يقعدا له بمكان ذكره لهما من طريقه إلى الغار، وثبت رسول الله صلى الله عليه وآله بمكانه مع علي يأمره في ذلك بالصبر حتى صلى العشاءين ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله في فحمة العشاء والرصد من قريش قد أطافوا بداره ينتظرون أن ينتصف الليل وتنام الأعين. فخرج وهو يقرأ هذه الآية ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا - فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ وكان بيده قبضة من تراب فرمى بها في رءوسهم فما شعر القوم به حتى تجاوزهم ومضى حتى أتى إلى هند وأبي بكر فنهضا معه حتى وصلوا إلى الغار. ثم رجع هند إلى مكة بما أمره به رسول الله صلى الله عليه وآله، ودخل رسول الله وأبو بكر الغار. قال بعد سوق القصة الليلة: حتى إذا اعتم من الليلة القابلة انطلق هو يعني عليا عليه السلام وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله صلى الله عليه وآله في الغار فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله هندا أن يبتاع له ولصاحبه

بعيرين فقال أبو بكر قد كنت أعددت لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب فقال: إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن قال: فهي لك بذلك فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عليا عليه السلام فأقبضه الثمن ثم وصاه بحفظ ذمته وأداء أمانته. وكانت قريش قد سموا محمدا في الجاهلية: الأمين، وكانت تودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم، وجاءت النبوة والرسالة والأمر كذلك فأمر عليا عليه السلام أن يقيم صارخا بالأبطح غدوة وعشيا: من كان له قبل محمد أمانة أو دين فليأت فلنؤد إليه أمانته. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم علي فأد أمانتي على أعين الناس ظاهرا ثم إني مستخلفك على فاطمة ابنتي ومستخلف ربي عليكما ومستحفظه فيكما فأمر أن يبتاع رواحل له وللفواطم ومن أزمع الهجرة معه من بني هشام. قال أبو عبيدة: فقلت لعبيد الله يعني ابن أبي رافع: أوكان رسول الله صلى الله عليه وآله يجد ما ينفقه هكذا؟ فقال: إني سألت أبي عما سألتني وكان يحدث لي هذا الحديث. فقال: وأين يذهب بك عن مال خديجة (عليها السلام). قال عبيد

وينفضُّ المجلسُ عن شعيبَ ومن اتَّبعه، وهم قليل... وأهل مدينَ الّذين جمعوا كيدَهم، وأتوا به شعيباً... وأتمروا فيما بينهم:

ما العملُ حتى يخرجَ شعيبُ من بيننا، بهدوء...؟..

قالوا: ضيّقوا عليه، وحولوا بينه وبين قاصديه من أنصار وأتباع، واقطعوا عليهم كلّ سبيلٍ!..

وهكذا ضيّقوا على شعيبٍ كلَّ مجالٍ، وأخافوا أنصاره، وتهدّدوا أتباعه، فلم يثبت على الحقِ، منهم، إلاّ القلّةُ، ممّن امتحنَ الله قلوبهم للإيمان، فصبروا، وقاوموا باصرار المستميت، فلم يهنوا، ولم يتخاذلوا.. وهم يقولون: حسبُنا الله، هو مولانا، نعم المولى، ونعم النَّصيرا..

ورأى شعيبُ أنَّ من واجبِه أن ينهى قومه عمّا أزمعوا عليه من كيدٍ وأذىً، معذرة إلى الله، لعلّهم ينتهون...

فوقف فيهم- كعادته- خطيباً، فليس بعد اليوم لمعتذرٍ عذرٌ:

- ياقوم.. لاتغرُّنكم كثرة عددكم، فإنّها لن تغني عنكم من الله شيئاً... وتفرُّقَ الناسِ عني، فالنَّاسُ أعداءُ ما جهلوا..

ولاتصرُّوا على ماأنتم عليه من اعوِجاجٍ، تبغون إفسادَ من أراد الله إصلاحه، فتحولوا بيني وبين المؤمنين، وتقطعوا عليهم الطريق إلى الله،... تبغون السبيل عوجاً عن الحقّ، وزيغاً عن الهدى،.. فلا

ربنا باعد بين اسفارنا

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

في الكافي، بإسناده عن سدير قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل.﴿قالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ الآية.

فقال: هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض وأنهار جارية وأموال ظاهرة فكفروا نعم الله عز وجل وغيروا ما بأنفسهم من عافية الله فغير الله ما بهم من نعمة والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فأرسل الله عليهم سيل العرم ففرق قراهم وخرب ديارهم وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جنانهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ثم قال: «ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور».

قصة صالح عليه السلام

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ

في الكافي، مسندا عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت

له: ﴿كذبت ثمود بالنذر - فقالوا أ بشرا منا واحدا نتبعه - إنا إذا لفي ضلال وسعر﴾ قال: هذا فيما كذبوا صالحا، وما أهلك الله عز وجل قوما قط حتى يبعث قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم. فبعث الله إليهم صالحا فلم يجيبوه وعتوا عليه، وقالوا لن نؤمن لك حتى تخرج إلينا من هذه الصخرة ناقة عشراء وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها، فقالوا: إن كنت كما تزعم نبيا رسولا فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء فأخرجها الله كما طلبوا منه. ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا صالح قل لهم: إن الله قد جعل لهذه الناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم فيحبسونها فلا يبقى صغير وكبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله. ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض قال: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم. ثم قالوا: من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلا ما أحب؟ فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا لا يعرف له أب يقال له: قدار شقي من الأشقياء مشئوم عليهم فجعلوا

وبينما هم كذلك، في العذاب، لايستقرون،.. وإذا بسحابةٍ بعثها الله إليهم، فيها ريح طيّبة،.. وقد أخذت تنبسطُ في الجوّ، وتمتدُّ طولاً وعرضاً..

فوجدوا فيها ضالّتهم المنشودة، فلعلّها تنجّيهم ممّا وقع بهم،.. وتنادُوا فيما بينهم: هلمُّوا إلى البرِّيّة، حيث السَّحابة، فاستفيئوا ظلّها.. فتداعوا إلى ظل الغمامة، لاهثين، من كلّ صوبٍ يُهرعون..

ولمّا اجتمع شملُهم في البرّيّة،.. وتكاملَ عددُهم تحت الغمامة،.. ألهبَها الله عليهم ناراً.. وأتتهم صيحةٌ من السَّماء انخلعت لها أفئدتهُم.. وزُلزلت الأرض تحت أقدامهم زلزالاً عظيماً.. فأصبحوا على وجه الثرى خامدين!..

وكان شعيبٌ والّذين آمنوا معه، يشاهدون ماحلَّ بقومهم، من بعيد.. فحمدوا الله، إذ لم يكونوا معهم، في العذاب، مشتركين!.

وعاد شعيب، إلى قومه، بعد حين، مثقلاً بالحزن المبرّح، والأسى المُمضّ، الشديد،.. فإذا بهم صرعى، خامدون!..

﴿فتولّى عنهم، وقال: ياقومِ لقد أبلغتُكُم رسالات ربّي، ونصحتُ لكم فكيف آسى على قومٍ كافرين﴾.(١)

---

(١) المصدر السابق.

وجوهكم مسودة فلما أن كان أول يوم أصبحوا وجوههم مصفرة فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: قد جاءكم ما قال صالح فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيما. فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم لو أهلكنا جميعا ما سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ولم يتوبوا ولم يرجعوا فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال لنا صالح. فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ لهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم فماتوا جميعا في طرفة عين: صغيرهم وكبيرهم فلم يبق لهم ناعقة ولا راعية ولا شيء إلا أهلكه الله فأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى فأرسل الله إليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقهم أجمعين، وكانت هذه قصتهم(١).

---

(١) الميزان ج١٢ ص٣٠٢.

تتمة:
كلام في قصة صالح في فصول

١ ـ ثمود قوم صالح عليه السلام

ثمود قوم من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام، وهم من بشر ما قبل التاريخ لا يضبط التاريخ إلا شيئا يسيرا من أخبارهم، ولقد عفت الدهور آثارهم فلا اعتماد على ما يذكر من جزئيات قصصهم.

والذي يقصه كتاب الله من أخبارهم أنهم كانوا أمة من العرب على ما يدل عليه اسم نبيهم وقد كان منهم (هود: ٦١) نشئوا بعد قوم عاد ولهم حضارة ومدنية يعمرون الأرض ويتخذون من سهولها قصورا وينحتون من الجبال بيوتا آمنين (الأعراف: ٧٤) ومن شغلهم الفلاحة بإجراء العيون وإنشاء الجنات والنخيل والحرث (الشعراء: ١٤٨).

المؤامرة

وذات مساء يحيط بيعقوب أبناؤه. وقد أجمعوا على أمرٍ، وانطوت جوانحهم التي تأكّلها الحسد، على خطبٍ جللٍ!.. فلم إيثارُ الأب يوسف عليهم أجمعين؟..

وتودّدوا إليه: ﴿قالوا: يا أبانا مالكَ لاتأمنّا على يوسُفَ وإنّا لهُ لناصحون. أرسِلهُ معَنا غداً يرتَع ويلعبْ وإنّا لهُ لحافِظونَ﴾.

ويشعُرُ يعقوبُ بما يشبِهُ الإنتفاضةَ تسري في أوصالِهِ، فترتعدُ فرقاً(أي: خوفاً) فهو، فعلاً، لايأمنهُم على يوسف، فجميعهم له حاسدون!..

ويحاول الشّيخُ الاّ يستجيبَ لطلبِ أبنائه هؤلاء، متذرّعاً بخوفه على يوسف من ذئب عادٍ، أو أفعى ناهشة، في هذه البرّيّة الموحشة، حيث يسرح أبناؤه بقطعانهم، من صبحٍ لمساءٍ!.. ويتظاهر إخوة يوسف بالحرص على أخيهم، فهو، بينهم، سويداءُ القلب، وسوادُ العين!.. ومن أين للأذى أن يعتريهُ؟..

وأنّى للذّئب أن يصل إليه، وهم عصبةٌ أشدّاءُ؟..

ومازالوا بأبيهم يستميلونه، ويستعطفونه، حتّى أذن لهم.. فأخذوه

معهم في صباح اليوم التّالي.

وما أن ابتعدوا عن الحيّ حتّى وثبوا على يوسُفَ: فهذا يَشُدُّه وثاقاً، وذلك يُمسِكُ بيديه، وذاكَ يُجَرِّدُه من قميصِهِ..

وائتمروا به.. ماذا يفعلون؟..

قال أحَدُهم: نَقتُله ونستريحُ..

وقال آخرُ: بل نبيعُه لبعض التُّجَّارِ العابرينَ على أنّه عبدٌ رقيقٌ..

وقال كبيرُهم يهوذا: من الحرام أن نقتُله، إذ لم يجترم جُرماً، ولم يقترف إثماً.. بل نلقيه في غيابات جبٍّ قريبٍ، وليكُن بعد ذلك مايكون!..

واستحسنوا رأيه!..

فقادوا يوسف إلى جبٍ قريبٍ، ألقوه فيه، ثمّ قفلوا، بعد ذلك، راجعين..

لقد انتهَوا من يوسُفَ، دونَ أنْ تَتَلطَّخَ بدمِهِ يدٌ!..

وعادُوا إلى أبيهم، مساءً، وهم يصفُقون كفاً بكف مُتباكينَ!.. ويَبتدِرُهُم أبوهُم يَعقُوبُ، وقد انخلعَ جِنانُه:

- ويحَكُم!.. ما الأمرُ؟

في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين (الأعراف ٧٩ - هود ٦٧) وأنجى الله الذين آمنوا وكانوا يتقون (حم السجدة ١٨) ونادى بعدهم المنادي الإلهي: ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود.

٣ـ شخصية صالح عليه السلام

لم يرد لهذا النبي الصالح في التوراة الحاضرة ذكر.

كان عليه السلام من قوم ثمود ثالث الأنبياء المذكورين في القرآن بالقيام بأمر الله والنهضة للتوحيد على الوثنية يذكره الله تعالى بعد نوح وهود، ويحمده ويثني عليه بما أثنى به على أنبيائه ورسله، وقد اختاره وفضله كسائرهم على العالمين عليهم السلام(١).

*****

(١) المصدر السابق.

قصة غدير خم

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

في غاية المرام، عن أبي المؤيد موفق بن أحمد في كتاب فضائل علي، قال: أخبرني سيد الحفاظ شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمي فيما كتب إلي من همدان، أخبرنا أبو الفتح عبدوس بن عبد الله بن عبدوس الهمداني كتابة، حدثنا عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا الحسين بن عليل الغنوي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن الزراع، حدثنا قيس بن حفص، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو هريرة عن أبي سعيد الخدري: أن النبي ﷺ يوم دعا الناس إلى غدير خم أمر بما تحت الشجرة من شوك فقم، وذلك يوم الخميس يوم دعا الناس إلى علي وأخذ بضبعه ثم رفعها حتى نظر الناس إلى بياض إبطيه ثم لم يفترقا حتى نزلت

هذه الآية: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم - وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتي والولاية لعلي، ثم قال: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله. وقال حسان بن ثابت: أتأذن لي يا رسول الله أن أقول أبياتا؟ قال: قل ينزله الله تعالى، فقال حسان بن ثابت: يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم وأسمع بالنبي مناديا. بأني مولاكم نعم ووليكم فقالوا ولم يبدو هناك التعاميا. إلهك مولانا وأنت ولينا ولا تجدن في الخلق للأمر عاصيا. فقال له قم يا علي فإنني رضيتك من بعدي إماما وهاديا وعن كتاب نزول القرآن، في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للحافظ أبي نعيم رفعه إلى قيس بن الربيع، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري: مثله، وقال في آخر الأبيات: فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونوا له أنصار صدق مواليا. هناك دعا اللهم وال وليه وكن للذي عادى عليا معاديا وعن نزول القرآن، أيضا يرفعه إلى علي بن عامر عن أبي الحجاف عن الأعمش عن عضة قال: نزلت هذه الآية على

وتوَسّم عزيزُ مصر في الفتى محتداً شريفاً، وأصلاً كريماً.. إنّ وجهه ليُنبئ عن أرومةٍ طيّبة العناصر، عريقة الأصول!.. وأوصى به زوجه خيراً، فيوسفُ ليس عبداً كبقيّة العبيد!..

وأحسن يوسُفُ الخدمة في بيت سيّدِه، وأخلَصَ في ذلك... فهو بينَ أهليه حقّاً، فشتّان بينهم وبين الّذين خلّفهم وراءه في أرض كنعان!..



❋❋❋❋❋❋

قال: نبأنا محمد بن أحمد بن علي، قال: نبأنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، قال: نبأنا يحيى الحماني، قال: حدثنا قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري، وذكر مثل الحديث الأول.

قال: قال الحمويني عقيب هذا الحديث: هذا حديث له طرق كثيرة إلى أبي سعيد سعد بن مالك الخدري الأنصاري.

وعن المناقب الفاخرة، للسيد الرضي رحمه الله عن محمد بن إسحاق، عن أبي جعفر، عن أبيه عن جده قال: لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من حجة الوداع نزل أرضا يقال له: ضوجان، فنزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ فلما نزلت عصمته من الناس نادى: الصلاة جامعة فاجتمع الناس إليه، وقال: من أولى منكم بأنفسكم: فضجوا بأجمعهم فقالوا: الله ورسوله فأخذ بيد علي بن أبي طالب، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله لأنه مني وأنا منه، وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلا

وإذ بعزيز مصر، في الباب، وجهاً لوجهٍ، وقد فغرَ فاهُ مدهوشاً!..

وقبلَ أن يستجمع العزيزُ شتات أفكاره، ﴿قالت: ماجزاءُ من أرادَ بأهلِكَ سوءاً إلاّ أن يُسجَنَ أو عذابٌ أليمٌ﴾

ولايُطيق يوسفُ، مكراً من سيّدته، وكذباً، ﴿قال: هي راودَتني عن نفسي﴾

ويظهر على عزيزي مصر الارتباك، فهو محتارٌ في أمره، لايدري مايفعل.. ويصل بعض أهل امرأة العزيز، فيُفاجأ، إذ الموقف فاضحٌ.. ينذرُ بعاصفةٍ وإعصارٍ!.. ويسكتُ الجميعُ، ويُطرقون، فمن يُحصحصُ صدقاً من كذبٍ، وحقاً من باطلٍ؟..

ويهديه رُشدُهُ إلى اقتراحٍ، يقودُ إلى الحقيقة النّاصعة:

﴿إن كان قميصُه قُدَّ(أي: شُقَّ) من قُبُلٍ، فصدَقَتْ وهُوَ من الكاذبينَ. وإن كان قميصُهُ قُدَّ من دُبُرٍ، فكذَبَت وهُوَ من الصّادقينَ. فلمّا رأى قميصَهُ قُدّ من دُبُرٍ، قال: إنّهُ من كيدِكُنَّ، إنَّ كيدَكُنَّ عظيمٌ﴾.

وكان عزيزُ مصر حكيماً في موقفه، فلملم الموقف، محاذراً تفجيره،.. فليس للقُصور أن تنبعث منها رائحة فضيحة!.. وليس لهذا الأمر أن يتكرّر أو أن يشيع.. فيلتفت إلى يوسفَ المطرق برأسه، فيواسيه:

-﴿يوسف، أعرض عن هذا﴾ لاعليكِ!.. وانسَ ما حدث، وكأنّه لم يكُن!.. وينظرُ إلى زوجه، الّتي تكادُ تتهاوى من فرط حياءٍ وندمٍ وخجلٍ،.. فعليها أن تتُوبَ من فعلتها، وتتندم على مابدر منها، ولاتعودَ لمثلها أبداً،..

- أما أنت، فتوبي ﴿واستغفري لذنبِكِ إنّكِ كنتِ منَ الخاطئين﴾



المذكورة فيها، فهاتان الروايتان وما في معناهما هي الموافقة للكتاب من بين جميع الروايات فهي المتعينة للأخذ.

على أن هذه الأحاديث الدالة على نزول الآية في مسألة الولاية - وهي تزيد على عشرين حديثا من طرق أهل السنة والشيعة - مرتبطة بما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾: الآية المائدة: ٦٧ وهي تربو على خمسة عشر حديثا رواها الفريقان، والجميع مرتبط بحديث الغدير: «من كنت مولاه فعلي مولاه» وهو حديث متواتر مروي عن جم غفير من الصحابة، اعترف بتواتره جمع كثير من علماء الفريقين.

ومن المتفق عليه أن ذلك كان في منصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة.

وهذه الولاية لو لم تحمل على الهزل والتهكم فريضة من الفرائض كالتولي والتبري اللذين نص عليهما القرآن في آيات كثيرة، وإذا كان كذلك لم يجز أن يتأخر جعلها نزول الآية أعني قوله: ﴿اليوم أكملت﴾، فالآية إنما نزلت بعد فرضها من الله سبحانه، ولا اعتماد على ما ينافي ذلك من الروايات لو كانت منافية.

وأما ما رواه من الرواية فقد عرفت ما ينبغي أن يقال فيها غير أن هاهنا أمرا يجب التنبه له، وهو أن التدبر في الآيتين الكريمتين: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ الآية على ما سيجيء من بيان معناه، وقوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية والأحاديث الواردة من طرق الفريقين فيهما وروايات الغدير المتواترة، وكذا دراسة أوضاع المجتمع الإسلامي الداخلية في أواخر عهد رسول الله صلى الله عليه وآله والبحث العميق فيها يفيد القطع بأن أمر الولاية كان نازلا قبل يوم الغدير بأيام، وكان النبي صلى الله عليه وآله يتقي الناس في إظهاره، ويخاف أن لا يتلقوه بالقبول أو يسيئوا القصد إليه فيختل أمر الدعوة، فكان لا يزال يؤخر تبليغه الناس من يوم إلى غد حتى نزل قوله: «يا أيها الرسول بلغ» الآية فلم يمهل في ذلك.

وعلى هذا فمن الجائز أن ينزل الله سبحانه معظم السورة وفيه قوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية وينزل معه أمر الولاية كل ذلك يوم عرفة فأخر النبي صلى الله عليه وآله بيان الولاية إلى غدير خم، وقد كان تلا آيتها يوم عرفة وأما اشتمال بعض الروايات على نزولها يوم الغدير فليس من المستبعد أن يكون ذلك لتلاوته

ﷺ الآية مقارنة لتبليغ أمر الولاية لكونها في شأنها.

وعلى هذا فلا تنافي بين الروايات أعني ما دل على نزول الآية في أمر الولاية، وما دل على نزولها يوم عرفة كما روي عن عمر وعلي ومعاوية وسمرة، فإن التنافي إنما كان يتحقق لو دل أحد القبيلين على النزول يوم غدير خم، والآخر على النزول على يوم عرفة.

وأما ما في القبيل الثاني من الروايات أن الآية تدل على كمال الدين بالحج وما أشبهه فهو من فهم الراوي لا ينطبق به الكتاب ولا بيان من النبي ﷺ يعتمد عليه.

وربما استفيد هذا الذي ذكرناه مما رواه العياشي في تفسيره، عن جعفر بن محمد بن محمد الخزاعي عن أبيه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لما نزل رسول الله ﷺ عرفات يوم الجمعة أتاه جبرئيل فقال له: إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: قل لأمتك: اليوم أكملت دينكم بولاية علي بن أبي طالب وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ولست أنزل عليكم بعد هذا، قد أنزلت عليكم الصلاة والزكاة والصوم والحج، وهي الخامسة،

يوسف في السجن

ووجد يوسفُ في سجنه بعض متّسع من الوقت ليُبثَّ أفكاره بين هؤلاء السيئي الطّالع الذين تصمُّهم عتمةُ السجن فما من إلهٍ إلاّ الله الواحد القهارُ!..

فلا«رَعْ» -اي الشمسُ- بإلهٍ، ولا«إبيس»- أي العجلُ- بإلهٍ أيضاً..

ولاهذه الأصنامُ جميعاً بألهةٍ. إنّها حجر منحوتٌ!.. فالله وحدهُ، خالقُ السموات وما فيهن، والأرضين، وما عليهن. وهو ربُّ العالمين!.. بذلك بشّر إبراهيمُ من قبلُ، وإليه دعا من بعده، جدُّ يوسفَ، إسحقُ، وأبوه يعقوبُ!..

﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ فأصغيا إلى دعوته، فوجداها حقاً.. إنّهما ساقي الملك، وخازن طعامه، سيقا الى السجن ليُحاكما بعد ذلك.. ووجد الفتيان في يوسف رجاحة عقل وشرف نفس وعلوَّ همّةٍ، لم يجداها في غيره.. فأتياه يوماً ليُنبئهُما بتأويل حلم رأياه:

قال الأول: لقد رايت فيما يرى النائم إني أقدّم للعزيز خمراً..

وقال الثاني: بينما رأيتُ أنا، أنّي أحملُ على رأسي خبزاً، فتأتي الطيرُ، وتأكُلُ منه.

ويجد يوسفُ في المناسبة فرصة سانحة ليُبشّر بدينه، ودين آبائه: يعقوب وإسحق وإبراهيم.. فهو الدّين الحقُّ القيم ﴿ولكنّ أكثر النّاسِ لا يعلمون﴾

ثم يلتفت إلى الأول منهما، قائلاً: لاأخالك إلاّ ناجياً، عمّا قريب، وستعود إلى بلاط الملك، ساقياً له، ونديماً، تقدّم له كؤوس الخمر. فإن كان ذلك، ولابدَّ من أنّه سيكون، فاذكرني عند سيّدك الملك».

ثم التفت الى الثاني، أما أنت، فستُصلبُ بعد خروجك من السّجن..

ويبتسم الثاني، وكأنه كان غير صادق في ما زعم من رؤيا، ويحاول الاعتراض فيرفع يوسف كلتا يديه بوجههما، قائلاً لهما: هذا أمرُ الله وقضاؤه فيكما، فقد ﴿قُضي الأمرُ الذي فيه تستفتيان!..﴾.

ويكون مانبّأهُما به يوسف:

إذ سرعان مايستدعى الرجلان، فيخرجان من السجن، ويمثلان أمام القضاء، فتبرّأُ ساحة الأول، فيعود ساقياً للملك، ونديماً.. وتثبت على الثاني التُّهمة، فيُقتل صلباً..

وتمرُّ، بعد ذلك على يوسف في سجنه بضعُ سنين، وقد عانى فيها ما لا يعلمُهُ إلا الله!..

وإن شئت فقل: المراد بالدين صورة الدين المشهودة من أعمالهم، وكذا في الإسلام، فإن هذا المعنى هو الذي يقبل الانتقاص بعد الإزدياد.

وأما كليات المعارف والأحكام المشرعة من الله فلا يقبل الانتقاص بعد الإزدياد الذي يشير إليه قوله في الرواية: «أنه لم يكمل شيء قط إلا نقص» فإن ذلك سنة كونية تجري أيضا في التاريخ والاجتماع بتبع الكون، وأما الدين فإنه غير محكوم بأمثال هذه السنن والنواميس إلا عند من قال: إن الدين سنة اجتماعية متطورة متغيرة كسائر السنن الاجتماعية.

إذا عرفت ذلك علمت أنه يرد عليه أولا: أن ما ذكر من معنى كمال الدين لا يصدق عليه قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وقد مر بيانه.

وثانيا: أنه كيف يمكن أن يعد الله سبحانه الدين بصورته التي كان يتراءى عليها كاملا وينسبه إلى نفسه امتنانا بمجرد خلو الأرض من ظاهر المشركين، وكون المجتمع على ظاهر الإسلام فارغا من أعدائهم المشركين، وفيهم من هو أشد من

المشركين إضرارا وإفسادا، وهم المنافقون على ما كانوا عليه من المجتمعات السرية والتسرب في داخل المسلمين، وإفساد الحال، وتقليب الأمور، والدس في الدين، وإلقاء الشبه، فقد كان لهم نبأ عظيم تعرض لذلك آيات جمة من القرآن كسورة المنافقين وما في سور البقرة والنساء والمائدة والأنفال والبراءة والأحزاب وغيرها.

فليت شعري أين صار جمعهم؟ وكيف خمدت أنفاسهم؟ وعلى أي طريق بطل كيدهم وزهق باطلهم؟ وكيف يصح مع وجودهم أن يمتن الله يومئذ على المسلمين بإكمال ظاهر دينهم، وإتمام ظاهر النعمة عليهم، والرضا بظاهر الإسلام بمجرد أن دفع من مكة أعداءهم من المسلمين، والمنافقون أعدى منهم وأعظم خطرا وأمر أثرا وتصديق ذلك قوله تعالى يخاطب نبيه فيهم: ﴿هم العدو فاحذرهم﴾: المنافقون: ٤.

وكيف يمتن الله سبحانه ويصف بالكمال ظاهر دين هذا باطنه، أو يذكر نعمه بالتمام وهي مشوبة بالنقمة، أو يخبر برضاه صورة إسلام هذا معناه! وقد قال تعالى: ﴿وما كنت متخذ المضلين

ماءُ النّيل، وينحسرُ خيرُه، فلا يعودُ إلى سابق عطائه.. وينقطعُ الغيثُ، فلا تغُلُّ الأرضُ، وتصابون بالدّواهي وعظائم الأمور، فيعُمُّ قحطٌ وجدب، وتبتلون بشظف عيش وقسوة حياة.

وبعد ذلك، تقبل الأيام عليكم بوجهها من جديدٍ، بعد إدبارٍ، فيخصبُ وادي النّيل، ويُمرعُ، ويعُمُّ الخير أرض مصر كلّها..

وتغاثون حنطةً وشعيراً فتأكلون، وسمسماً وزيتوناً، وعنباً، فتعصرون!.. فإن كان ذلك- وهو كائنٌ لامحالة- فذروا ما حصدتم في سنبله، ودعوه في أهرائكم باستثناء ماأنتم بحاجة إلى أكله، حتى يقضي الله أمراً كان مقضياً!..

ويعودُ الرّسول إلى قصر الملك، يهرول، مُسرعاً..

إن تفسير الرؤيا أعجبُ من الرؤيا ذاتها، وأغربُ!..

ويُنبئُ الملك، أمام العلماء المحتشدين في بلاط القصر، تفسير الرؤيا التي رآها.. فينبهرون جميعاً..

ويقول قائلهم: إن هذا لذو علمٍ عليمٌ.

ويقول آخرُ: بل، إنّ هذا من وحي السّماء!..

ويلتفت الملك إلى ساقيه، مُنتهراً إياه: ماذا تنتظرُ؟.. هيّا!.. عليّ بيوسف سريعاً!..

في قوله: ﴿وعد الله الذين ءامنوا﴾ الآية وكذا كون قوله في هذه الآية: ﴿أكملت لكم دينكم﴾، محاذيا لقوله: «و ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم» في تلك الآية ومفيدا معناه كل ذلك لا ريب فيه.

إلا أن آية سورة النور تبدأ بقوله: ﴿وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ وهم طائفة خاصة من المسلمين ظاهر أعمالهم يوافق باطنها، وما في مرتبة أعمالهم من الدين يحاذي وينطبق على ما عند الله سبحانه من الدين المشرع، فتمكين دينهم المرضي لله سبحانه لهم إكمال ما في علم الله وإرادته من الدين المرضي بإفراغه في قالب التشريع، وجمع أجزائه عندهم بالإنزال ليعبدوه بذلك بعد إياس الذين كفروا من دينهم.

وهذا ما ذكرناه: أن معنى إكماله الدين إكماله من حيث تشريع الفرائض فلا فريضة مشرعة بعد نزول الآية لا تخليص أعمالهم وخاصة حجهم من أعمال المشركين وحجهم، بحيث لا تختلط أعمالهم بأعمالهم.

وبعبارة أخرى يكون معنى إكمال الدين رفعه إلى أعلى مدارج الترقي حتى لا يقبل الانتقاص بعد الازدياد.

وفي تفسير القمي، قال: حدثني أبي، عن صفوان بن يحيى، عن العلاء، عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: آخر فريضة أنزلها الولاية ثم لم ينزل بعدها فريضة ثم أنزل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بكراع الغميم، فأقامها رسول الله صلى الله عليه وآله بالجحفة فلم ينزل بعدها فريضة.

أقول: وروى هذا المعنى الطبرسي في المجمع، عن الإمامين: الباقر والصادق (عليهما السلام) ورواه العياشي في تفسيره عن زرارة عن الباقر عليه السلام.

وفي أمالي الشيخ، بإسناده، عن محمد بن جعفر بن محمد، عن أبيه أبي عبد الله عليه السلام، عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: بناء الإسلام على خمس خصال: على الشهادتين، والقرينتين. قيل له: أما الشهادتان فقد عرفنا فما القرينتان؟ قال: الصلاة والزكاة فإنه لا تقبل إحداهما إلا بالأخرى، والصيام وحج بيت الله من استطاع إليه سبيلا، وختم ذلك بالولاية فأنزل الله عز وجل: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي - ورضيت لكم الإسلام دينا».

وفي روضة الواعظين، للفتال، ابن الفارسي عن أبي جعفر عليه السلام وذكر قصة خروج النبي صلى الله عليه وآله للحج ثم نصبه عليا للولاية عند منصرفه إلى المدينة ونزول الآية، وفيه خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الغدير وهي خطبة طويلة جدا.

أقول: روي مثله الطبرسي في الإحتجاج، بإسناد متصل عن الحضرمي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، وروى نزول الآية في الولاية أيضا الكليني في الكافي، والصدوق في العيون، جميعا مسندا عن عبد العزيز بن مسلم عن الرضا عليه السلام، وروى نزولها فيها أيضا الشيخ في أماليه بإسناده عن ابن أبي عمير عن المفضل بن عمر عن الصادق عن جده أمير المؤمنين عليه السلام، وروى ذلك أيضا الطبرسي في المجمع، بإسناده عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري، وروى ذلك الشيخ في أماليه، بإسناده عن إسحاق بن إسماعيل النيسابوري عن الصادق عن آبائه عن الحسن بن علي (عليهما السلام) وقد تركنا إيراد الروايات على طولها إيثارا للاختصار فمن أرادها فليراجع محالها والله الهادي(١).

(١) الميزان في تفسير القرآن ج٢.

إمرأة فرعون

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ـ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ـ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ.

تتضمن الآيات الكريمة مثلين يمثل بهما الله سبحانه حال الكفار والمؤمنين في أن شقاء الكفار وهلاكهم إنما كان بخيانتهم لله ورسوله وكفرهم ولم ينفعهم اتصال بسبب إلى الأنبياء المكرمين، وأن سعادة المؤمنين وفلاحهم إنما كان بإخلاصهم الإيمان بالله ورسوله والقنوت وحسن الطاعة ولم يضرهم اتصال

بأعداء الله بسبب فإنما ملاك الكرامة عند الله التقوى.

يمثل الحال أولا: بحال امرأتين كانتا زوجين لنبيين كريمين عدهما الله سبحانه عبدين صالحين - ويا له من كرامة - فخانتاهما فأمرتا بدخول النار مع الداخلين فلم ينفعهما زوجيتهما للنبيين الكريمين شيئا فهلكتا في ضمن الهالكين من غير أدنى تميز وكرامة.

وثانيا: بحال امرأتين إحداهما امرأة فرعون الذي كانت منزلته في الكفر بالله أن نادى في الناس فقال: أنا ربكم الأعلى، فآمنت بالله وأخلصت الإيمان فأنجاها الله وأدخلها الجنة ولم يضرها زوجية مثل فرعون شيئا، وثانيتهما مريم ابنة عمران الصديقة القانتة أكرمها الله بكرامته ونفخ فيها من روحه.

وفي التمثيل تعريض ظاهر شديد لزوجي النبي صلى الله عليه وآله حيث خانتاه في إفشاء سره وتظاهرتا عليه وآذتاه بذلك، وخاصة من حيث التعبير بلفظ الكفر والخيانة وذكر الأمر بدخول النار.

قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾ إلخ، قال

الراغب: الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتبارا بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيض الخيانة الأمانة، يقال: خنت فلانا وخنت أمانة فلان.انتهى.

وقوله: «للذين كفروا» إن كان متعلقا بالمثل كان المعنى: ضرب الله مثلا يمثل به حال الذين كفروا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالعباد الصالحين، وإن كان متعلقا بضرب كان المعنى: ضرب الله الامرأتين وما انتهت إليه حالهما مثلا للذين كفروا ليعتبروا به ويعلموا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالصالحين من عباده وأنهم بخيانتهم النبي صلى الله عليه وآله من أهل النار لا محالة.

وقوله: «امرأة نوح وامرأة لوط» مفعول «ضرب» والمراد بكونهما تحتهما زوجيتهما لهما.

و قوله: ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئا﴾ ضمير التثنية الأولى للعبدين، والثانية للامرأتين، والمراد أنه لم ينفع المرأتين زوجيتهما للعبدين الصالحين.

وقوله: ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ أي مع الداخلين

- ماالأمرُ، أيّها الحرسيُّ؟.

- لقد فقدنا صواعَ الملك، وهو كما تعلمون، من الذّهب الخالص. إنني كفيلٌ لمن يجئُ به، بكيل بعيرٍ من الحنطة، وما هذا الكيلُ بيسيرا!..

- والله ما كنا لنخون، وماكنّا لنسرقَ، ولالنعيثُ في الأرض فساداً، نحن، ياهذا، أبناءُ نبيّ ابن نبيّ، فاتّق الله في أمرنا!..

مادمتم لتقولون ذلك، فهيّا إلى العزيز، ليرى رأيه في ماتقولون!..

ويعود أبناء يعقوب إلى عزيز مصر..

- مالخطبُ أيّها العزيز؟

- إننا نفقد الصُّواع الذهبيّ الذي نكيلُ به الحنطة للنّاس، فلعلَّ أحدكُم سرقه!.

- سرقه؟.. أترى في وجوهنا سيماء لُصوصٍ، وسُرّاقٍ؟..

- لعلّه يكون في أحد أحمال هذه الحنطة التي على الإبل، فهيّا، وأنزلوا ماعليها من أحمالٍ!..

ويُسرع أبناء يعقوب ينيخون الجمال، وينزلون ما عليها من أحمال حنطةٍ، وهم يقولون: والله ماكنّا سارقين!..

ويقول لهم العزيزُ، وهم يفُكُّون أربطة رحالهم:

- ماجزاءُ من سرقه إن تبيَّن أنه في رحال أحدكُم؟..

فيجيبون: كما يقضي بذلك، عندكُم القانون.

-يتحمَّلُ وحده العقاب دون الآخرين.

- وهو كذلك!..

ويتقدم العزيز فيتحسَّسُ أحمال إخوته العشرة، وهم يبتسمون،.. فلا يجد شيئاً..

ثم يمدُّ يمينه إلى حمل بنيامين فيستخرج الصُّواع منه،.. ويرفعُه في وجوهِهم!..

وتعقُلُ الدَّهشة ألسنةَ أبناء يعقوبَ، ويسطع الغضبُ من عيونهم، فتظهرُ وجوههم حمراء دكناء!.. فمتى كان هذا الحمل الوديع لصّاً خطيراً؟..

﴿قالوا: إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبلُ﴾

فيرمقهم عزيز مصر بنظرة كالصّاعقة؛ فما زال هؤلاء الرّجالُ على ضلالهم القديم!.. ويجيلُ نظراته في هؤلاء العشرة من الرجال، وقد اعتراهم خزيٌ كاسحٌ،

﴿ قال: أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلمٌ بما تصفون﴾

وأمر عزيزُ مصرَ بنيامينَ فأوقِفَ جانباً..

ولمّا رأى أخوتُه ذلك، ذكروا أباهم، والمواثيق الّتي أخذها عليهم، والعهود.. إنّه لآمرٌ، جدٌّ فظيعٌ!..

ووقفوا أمام عزيز مصر مستعطفين...

﴿قالوا: ياأيّها العزيزُ إنّ له أباً شيخاً كبيراً، فخُذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين. قال: معاذ الله أن نأخُذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده إنّا إذاً لظالمون﴾

فأطرقوا!.. إنّ العزيز ليقول حقّاً ويحكمُ عدلاً..

يهمُّون بالإنصراف، وقد اكتسحهُم همٌّ ثقيلٌ، فبأيِ وجهٍ سيُلاقون أباهم، وقد أخذ عليهم موثقاً من الله، غليظاً، وعاهدوه، فما قُدّرَ لهم الوفاء؟

ويضرب كبيرُهُم الأرض بقدمه، قائلاً لإخوته:

- ويحكُم!.. أنسيتُم عهدكُم لأبيكم. بئس ماتعودون به إليه.. أمّا أنا، ﴿فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي، أو يحكُم الله لي وهو خيرُ الحاكمين﴾.

وعاد أبناء يعقوب إلى أبيهم، مطرقي الرؤوس، منكّسي الهامات، كأنّهم وراء جنازةٍ يسيرون.. ويخبرنه بالحدث، فيضربُ يعقوبُ

فيه من روحنا﴾ إلخ، عطف على امرأة فرعون والتقدير وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم إلخ.

ضربها الله مثلا باسمها وأثنى عليها ولم يذكر في كلامه تعالى امرأة باسمها غيرها ذكر اسمها في القرآن في بضع وثلاثين موضعا في نيف وعشرين سورة.

وقوله: «التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا» ثناء عليها على عفتها، وقد تكرر في القرآن ذكر ذلك ولعل ذلك بإزاء ما افتعله اليهود من البهتان عليها كما قال تعالى: ﴿وقولهم على مريم بهتانا عظيما﴾ النساء: ١٥٦، وفي سورة الأنبياء في مثل القصة: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها﴾ الأنبياء: ٩١.

وقوله: ﴿وصدقت بكلمات ربها﴾ أي بما تكلم به الله سبحانه من الوحي إلى أنبيائه كما قيل، وقيل: المراد بها وعده تعالى ووعيده وأمره ونهيه، وفيه أنه يستلزم كون ذكر الكتب مستدركا.

وقوله: «وكتبه» وهي المشتملة على شرائع الله المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل كما هو مصطلح القرآن ولعل المراد

المفاجأة

ويذكرُ أبناء يعقوب عزيز مصر، وعدله، وكرم يده، وشمائله الحسان، وأخاهُم لديه.. فيجمعون ماب حوزتهم من مالٍ يسيرٍ ويتوجّهون به إلى بلاد العزيز..

ويدخلون عليه قائلين:

ياأيُّها العزيزُ، لقد ابتُلينا بأمورٍ عظامٍ، وخُطوبٍ جسامٍ إذ شحّت السّماءُ، وأجدبت الغبراءُ، فأصابت أهلَنا البأساءُ والضّرّاءُ، وجئناك بما أبقت عليه الأيام النّكداءُ، والخطوب النّكراءُ، وهو مالٌ جدُّ يسيرٌ، وقليلٌ حقيرٌ، ﴿فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إنّ الله يجري المتصدّقين﴾

﴿قال: هل علمتُم مافعلتُم بيوسُفَ وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾.

ويستعيدون في أذهانهم صورة أخيهم يوسف، كفلقة القمر اشراقاً ولألاءً، إنّه، وربّ ابراهيمَ- لهوا.. وقد القت النعماء عليه مسحةً من مزيد بهاءٍ وإشراقٍ..

فيا للمُفاجأة الصّاعقة!..

ويصرخُ بعضُ إخوته، وقد داهمتهُم المُفاجأةُ فأخرجتهُم عن طورهم، وتأدُّبهم أمام عزيز مصر، ﴿قالوا: أإنّك لأنت يوسُفُ!﴾

ويجيبهم بكل هدوءٍ: ﴿قال: أنا يوسفُ وهذا أخي قدْ منَّ الله علينا، إنّه من يتّق ويصبِر فإنَّ الله لايُضيعَ أجرَ المحسنين﴾.

فاعترفوا بخطيئتهم، وقد تطأطأت منهم الرُّؤوسُ، فلا يستطيعون النّظر إلى وجه اخيهم خجلاً من فعلتهم الشّنعاء...

واستأذنُوه أن يعودوا إلى أبيهم بالبُشرى، فإذن لهم.. وجهّزهم بما ناءت به العيرُ، وبقميصٍ له، طلب إليهم أن يلقُوه على وجه أبيهم حينَ يصلون!..

وقفلت العيرُ، وئيدةً، بطيئةً، بما عليها من أحمالٍ ثقالٍ، وقد توجّه بها أبناء يعقوب إلى بلادهم في شماليَ الجليل، وقد علا صوتُ الحادي، فأخذت العيرُ تجدُّ في المسيرا..

وأخيراً.. وصلت العير إلى مواطنها، وأشرف أبناءُ يعقوب على أبيهم، وقد حمل البشيرُ قميص يوسف، وأخذ يعدو نحو أبيه..

فصاح يعقوبُ: ﴿إني لأجِدُ ريحَ يوسُفَ﴾

وطُرِحَ قميصُ يوسفَ على وجه يعقوب المتغضِن، الّذي لايبين منه إلاّ لحيةٌ كثّةٌ، مرسلةٌ على سجيّتها، تعلوها عينان غائرتان، غاض

فيهما النّورُ .. فارتدَّ بصيراً!... وسجد لله شكراً؟، وقد ردَّ إليه يوسفَ بعد طولِ غيابٍ..

فيا للبُشرى التي لايُحيطُ بها وصفٌ، وكأنّها لغرابتها، من عالم الخيال!..

وبعد عدَّة أيام تهيَّأ يعقوبُ، وأهلُ بيته جميعاً، للتوجُّهِ إلى مصر حيث العزيزُ، العزيزُ!..

وشهدت أرضُ كنعان قافلةً تحملُ خليطاً من رجالٍ ونسوةٍ، وصبيةٍ صغارٍ، وبعض مالٍ، ومتاعٍ،.. وفي مقدِّمتها شيخٌ مهيبٌ وقورٌ، يحث راحلته إلى أرض الكنانة!.

******

رواية

ورد في إحدى الرّوايات، أنّ بعض أملاك السّماء استأذنوا الله أن يشهدوا لحظة لقاء يوسُفَ بأبيه يعقوبَ، فأُذن لهم، إنّها من اللّحظات النّادرة في التاريخ!..

وشاهدت الملائكةُ في هذا اللّقاءِ عجباً:

الشيخ يفتحُ ذراعيه، صائحاً، ساعة شاهد إبنه، ويعدو نحوه، وكأنّه يطير.. وكذلك فعل يوسُفُ!..

ويصل كلٌّ منهما إلى صاحِبه..

ويرتمي كلٌّ منهما في حِضن الآخر..

ويتعانقان.. حتى يكادَ جسداهما يلتصق الواحدُ منهما بالآخر!.. وقد تحدّرت منهما دموع الفرح بسخاء، فتقطّرت على الأرض، غزاراً..

كما شهد هذا اللّقاء خلقٌ من المصريين، اصطفُّوا مرحّبين، وقد اغرورقت عيونهم بالدّموع..

وآوى يوسف أبويه وإخوته إليه في القصر، وقد أحاطوا به..

آدم وشيث، فوصل إلى مصر، وبقي فيها، حيث كان اليونانيون أهل علم وفلسفة، فعرفوه، وقدّروا علمه وتعرفوا إلى رسالته فسموه هرمس الهرامسة، أي حكيم الحكماء.

ويذكر بعض المؤرخين، أنّ إدريس هو إلياس الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، ويذكر آخرون أنّ إدريس عليه السلام مذكورٌ في التوراة العبرية وإسمه أخنوخ، وفي التوراة العربية وإسمه خنوخ.

ويُروي أنّ إدريس عليه السلام كان رجلاً مديد القامة، حسن الوجه، براق العينين أكحلهما، كثّ اللحية، عريض الصدر والمنكبين، ضخم البطن، متقارب الخطو، يمشي ونظره إلى الأرض، كثير الصمت قليل الكلام بطيئهُ إذا تكلم، كثير التفكير، عبوساً يحتدّ إذا ما غضب، ولكنه كان محتسباً صبوراً: ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كلٌ من الصابرين﴾ سورة الانبياء: الآية ٨٥.

ويُذكر أنّه عليه السلام كان يسبّح النهار ويصومه، ويبيت حيثما جنّه الليل، وأنّه كان يصعد له من العمل الصالح إلى السماء، مثلما يصعد لأهل الأرض كلهم. وقد سمي إدريس بهذا الإسم، لكثرة مدارسته الكتب السماوية وما فيها من الحكم والأحكام.

مسلِم عليه، ومسفِق لهُ، وملوّحٍ من بعيدٍ..

وَينعطف الموَكبُ الملكيُّ بالقرب من العجوز، فتدع وبصوتٍ عالٍ كالهُتاف:

سبحان من صيَّرَ العبيدَ ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيتِهِ!..

ويصلُ الصَّوتُ إلى مسامع العزيز، فيأمر الموكبَ بالتوقُّفِ، ويسألُ عن صاحبة الهُتاف، .. فيؤتى بالعجوز إليه..

ويسألها عزيزُ مصر عن سبَبِ هُتافها، وعن اسمِها، وعن حاجتها...

ويقشعرُّ بدنُ العزيز، وقد عرف العجوز الّتي ذهبت بنضارتها السُّنون...

إنّها زليخا.. وقد قلب لها الدَّهر ظهرَ المجنِ!..

وكم لها في قلبه من ذكريات لاتزولُ، وكأنّها محفورةٌ على صخر أصمَّ... وكم لها في ماضية من تاريخٍ حافلٍ، ومزدحمٍ بالأحداث!...

ويصطحبُها معه في الموكب الملكيِ... ويُدخلُها القصر متوكّئةً على عصاها، وقد احدودب ظهرها، واضمحلّت قواها..

ويراها يوسف كذلك، فتطفحُ عيناهُ بالدّمع.. فيدعو الله أن يُعيدَ إليها نضارةَ الصِبا، وريعان الشَّباب، كما كانت أيّام تركُضُ خلفهُ في

القصر وتُغلقَ الأبوابَ...

تقولُ الرّواية: إن الله يستجيبُ لنبيّه دعوتَه.. فإذا بزليخا تعودُ كما كانت أيّام زمان، تتألّقُ نضارةً، وتتفجّر عنفُوانَ شبابٍ.

وينظرُ إليها يوسُفُ وقد عادت تميس تيهاً، ودلالاً... ويطلبُ يدها للزواج فتقبلُ...

ويُسدَلُ السّتار على زواج يوسف من زليخا، كما شاء الله لهما ذلك.. فهما سعيدان!.. وعلى عودة أهله إليه جميعاً فهم في النّعيم يتقلّبون!...

ويرى الناسُ ذلك، ويسمع به آخرون، فيعجبون عجباً شديداً.. فهم لايكادون يصدّقون، فالقصّة تكاد تدخلُ في باب الأساطير!..

ولكنّها من أنباء الغيب، ووحي السماء..

﴿وما أكثرُ النّاس – ولو حرصت– بمؤمنين!...﴾ (١)

******

---

(١) المصدر السابق.

النبي يونس عليه السلام ذو النون

يونس يدعو قومه

قامت دولةُ الأشوريّين في بلاد «مابين النَّهرين» وكانت عاصمتُها «نينوى» بأرضِ الموصلِ.

وكانوا يهتمُّونَ بزراعةِ الأرضِ، اهتمامَهم بالعزوِ والتوسُّعِ، شأنهم في ذلك شأنُ جميعِ شعوب تلك الحقبةِ من التَّاريخ.

وإلى جانب ذلك، فقد كانوا وثنيين، يعبدونَ الأصنامَ. وارتفعت الأصنامُ في بيوتِ عبادَتِهم، وفي مدينة نينوى بشكلٍ خاصّ وتقرّبوا إليها بالعبادة والطّاعة، متّخذين منها آلهةً من دون الله تعالى.

وأباحوا لأنفسهم كلَّ حرامٍ.. فكانوا لايتورعون عن ارتكاب المعاصي والموبقات، ولايتناهون عن كبائر الفواحش، والآثام!.

فأرسل الله تعالى إليهم نبيَّهم «يونس» يدعوهم إلى عبادةِ الله وحدِهِ:

- ياقومُ!.. ماهذه الأصنامُ التي أنتم عليها عاكفون؟..

إنَّ ربَّكم الله خالقُ كلِ شيٍ، فتوبوا إليه، واعبدوهُ، يمتّعكم متاعاً حسَناً..

- ماهذا الهذرُ يايونس، وما هذا البهتانُ الذي تأتينا به؟

أنعبدُ إلهاً لانعرفُه، ولانراهُ، ونذرُ آلهتنا التي نشأنا على عبادتها نحنُ وآباؤنا الأقدمون؟

فمن ينجّينا إذاً من سخط «أشور»، عظيم آلهتنا، إن آمنّا بك واتّبعناك؟

- إنني ياقومُ إليكم بشيرٌ ونذيرٌ.. أرسلني الله إليكم كي أدعوكم إلى ما أوحيَ إليَّ به من الله العزيز الحكيم، أن اعبدوه وحده لاشريك له، ولاتُعرضوا عن هذا الدّين الّذي أتيتكم به.

فإن آمنتم وصدَّقتم برسالةِ ربكم كنتم من الفائزين.. وإلاَّ، فانتظروا سخطَ الله عليكم، وعذابه، فلا تُقبلُ عندئذٍ توبةُ التّائبين، ولاينفعُ ندمُ النّادمين. إنّ أجلَ الله لآتٍ لو كنتم تعلمون!..

- مانراك يايونس على شيء مما تدعوننا إليه، ولسنا لدعوتك بمستجيبين، ﴿فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين﴾.

ويكرّر يونس دعوته قومه إلى دين الحقّ، فلعلّهم يؤمنون.. فلا

يزدادون إلاّ غيّا، وإصراراً على ما هم سادرون فيه من ضلال.. فيضيق بهم ذرعاً.. إنهم قومٌ عمون!..

وأخيراً، يُنذرُهم: إنكم مُنظرون (أي: مُمهَلون) ثلاثة أيّام كي تتوبوا، وتُقلعوا عمّا أنتم عليه من الكفر، وتعودوا إلى الله؛ ربّكم، وإن لم تفعلوا، فائذنوا بالعذاب الأليم!..

وينصرف يونسُ عن محاجّتهم ومحاولة إقناعهم...

وينظر قومُ يونسَ، بعضُهم إلى بعضٍ، متسائلين:

- أحقاً ماينذرُنا به يونس؟

ويُردفُ أحدُهم:

- أو عهدتم عليه، قبلَ ذلك، كذباً؟...

- لا، إنه بيننا الصَّدوقُ الأمينُ!..

- الرأيُ أن تأخذوا قوله على أنه الصدق، ولمزيدٍ من التأكيد، علينا أن نراقبَ مبيته، فإن بات فليس بشيءٍ، وإن لم يبت، فاعلموا أنَّ العذابَ مُصبِحُكم..

فلمّا كان في جوف الليل خرجَ يونسُ من بين أظهرهم، وانطلق في أرض الله... مرتحلاً عن قومِهِ، مغاضباً، يائساً من هؤلاء القومِ الفاسقين..

وهكذا لم تكن لنبيّ الله يونسَ أناةُ نوحٍ، ولاصبرُ أيوبَ، ولاعزمُ موسى وإبراهيم!

نُذرُ العذاب

وما أن ابتعدَ يونسُ عن نينوى حتّى لاحَتْ نُذُرُ العذاب...

فقد غشيَ المدينة غيمٌ أسودُ ينبعثُ منه دخانٌ عظيمٌ.. فاسودت سطوح منازلهم، وخيّم العذابُ فوقَ رؤوسهم أجمعين!.. وتغيّرت هيئاتُ قومِ يونس، واكفهرّتْ وجوهُهُم، واربدَّت!..

ونظر بعضُهم إلى بعضٍ، فإذا بهم مكفهرُّون!..

ونظروا إلى علوٍ فإذا بالجو أسود قاتمٌ.. فداخلَهم خوفٌ ورعبٌ شديدان، وامتلأتْ قلوبهم هلعاً.. فأيقنوا بالهلاك، ووشيك العذاب الأليم!..

وتوجّهوا بجموعهم إلى «مليخا» كبير زهّادهم،.. وإلى «روبيل» عظيم علمائهم،.. يستفتونهما:

ماالعملُ؟.. وقد غشيَنا العذابُ.. فالأمرُ عصيبٌ، شديدٌ..

فأشار عليهم بأن يلبسوا المسوح (وهو لباسُ الزهّاد من الرهبان)،

وأن يتفرّقوا بين قمم الجبال، وبطون الأودية، ومنبسطات السُّهول.. وأن يُفرّقوا بين الأمّهات وأولادها، من بشرٍ وحيوانٍ.. وأن يتوبوا إلى الله..

ففعلوا ذلك:

وفزعوا إلى الله، يجأرون بالاستغاثة والدعاء:

- ياحيّ،.. ياقيُّوم، يامحييَ الموتى،.. لاإله إلا أنت!..

وعلا بكاء الأطفال الرُّضَّع، وحنينُ البُهم الصِغار الرُّتَّع، ودعاءُ الشيوخ الرُّكَّع.. وتابوا إلى الله توبةً نصوحاً!..

قال ابن مسعود:

«بلغ من توبة أهل نينوى أن ترادُّوا المظالم بينهم،... حتّى أن الرّجل كان ليأتي بالحجر، وقد وضع عليه أساسَ بنيانه، فيقتلعُه، ويردُّه!..»

فما زالوا على ذلك،... حتّى نظر الله تعالى إليهم، وهم على هذا الحال، فبسط عليهم رحمته، وقد تقبّل منهم توبتهم.. فلم يؤاخذ الصغيرَ بظلمِ الكبير، ولا الضعيفَ بجريرةِ القويّ، ولاالحييَّ بفسوق الفاجر الكفّار.. بل شملهم جميعاً برحمةٍ منه. ورفع عنه العذاب، وقد كاد يحيطُ بهم جميعاً!..

يونس يذهب مغاضباً

أمّا يونسُ فقد تابع انطلاقه، مغاضباً، دون أن يأمره الله بذلك، أو يوحي به، إليه، بل، تأوّلاً منه، وترخُّصاً، وصدوراً عن رأيه هو.. وهو فعل ذلك،... فيتحمّل إذاً التّبعات!...

وكان يظنُّ ظناً شديداً بأنْ لن يقدرَ الله عليه...

سواء كان معنى هذا «القدر» تقتيراً في الرّزقِ، كما يراه بعضُ أجلاّئنا المحقّقين، أو، تقديراً من الله تعالى، كما يراه بعضهُم الآخرُ.

وأمعن يونسُ يضربُ في طولِ الفضاءِ، وعرضِه، (كنايةً عن الجدّ في السير) حتى حطّت به عصا التّسيار أمام شاطئ البحر،... فتوقّف مُضنىً، تعباً!..

يونس في السفينة

وشاهد سفينةً شُحِنت بحّارةً ومسافرين، ومتاعاً كثيراً.. وقد أخذت أشرعتُها ترتفعُ، مؤذنةً بالإبحار!..

فاقتربَ يونسُ من الرُّبَّان، وبعضِ النوتيَّة، يسألهم أن يصطحبوه معهم، في رحلتهم هذه، فقبلوه بينهم،.. وأنزلوه كواحدٍ منهم، عزيزاً، مكرَّماً،.. وقد أُخذوا بسيماء هذا العبد الصّالح الوقور، الكريم خلقاً وخُلُقاً!..

وأقلعت السّفينةُ متهاديةً على صفحة اليّم،.. فالبحرُ ساجٍ (أي: هادئ ممتد) والريحُ طيّبةٌ، رُخاءٌ!..

وفي قلب البحر هبَّ على السّفينةِ إعصارٌ عاصفٌ، فتلاعب بها ذات اليمين وذات الشمال.. وأخذها الموج من كلّ جانبٍ، حتى أشرفت على الغرق.. فدعو الله مخلصين، أن يُنجّيهم من هذا الكرب الشديد..

وبينما هم كذلك، يغالبون الأمواج العاتية،.. وإذا بحوتٍ يشقُّ طريقه إلى السّفينة، وكأنه قطعةُ جبلٍ،.. ويأخذُ بالدّوران حولها، والإلتفاف عليها،.. يبتغي رزقاً يطعمه!.. فاحتار الربّان في أمره، لايدري ماذا يفعلُ.. ووجمَ النوتيّة، مضطربين.. وعلت الأصواتُ بالاستغاثة والدُّعاء.. فهم بين بحر هائجٍ. تتعالى أمواجُه كالجبال، وحوتٍ ضخمٍ لايبرُح جانبي السّفينة، شاخصاً بعنقه إلى من فيها من ركّاب!..

جزاي العبد الآبق

وتشاور ركّابُ السّفينة فيما بينهم،.. ما العمل؟

واستقرّ رأيُهم على أنّ بينهم عبداً آبقاً من مولاه (أي: هارباً من سيده) ولذلك كانت هذه العاصفةُ المجنونةُ،.. وهذا الحوتُ المنكر، الذي يأخذُ على سفينتِهم كلَّ طريقٍ!. وأجمعَ رأيَهم على إلقاءِ رجلٍ منهم في البحر.. فلعلّهم يتخلّصون من هذا النّحسِ الذي يصاحبُهم، فيصفو الجوُّ.. ولعلَّ الحوتَ يقنعُ به، فيدعُ السّفينةَ، وشأنها.. وتعاهدوا على ذلك.. ولجأوا إلى القُرعة: أيُّهم يكونُ نصيبَ الحوت؟.. وأجالوا القرعة فيما بينهم، فوقعت على يونس..

فاستعظموا أن يقذفوا بهذا العبد الصّالحِ في لجّةِ البحر، لقمةً سائغةً لهذا الحوت الشرس، العنيد..

وأجالوا القرعةَ ثانيةً، فوقعت على يونس..

فأبوا..

وأجالوها ثالثةً، فأصابت يونسَ أيضاً..

فعلم الجميعُ أن في الأمر سراً..

ونظروا إلى يونس كالمعتذرين، فمشيئة الله تأبى غيرَه.. فما كان من يونس إلاَّ أن رضي، قانعاً بما قسم الله له،.. وقد أوحيَ إليه:

- «عبدي... إن إردتَ أن تهربَ من قضائي، فاخرج من أرضي وسمائي!..»

وأسلم نبيُّ الله أمرَه ووجهَه لجبّار السّموات والأرض، وتوجَّه إلى حافّة السّفينة، واضعاً كلتا يديه على رأسه، وألقى بنفسه في لجّة الماء المزبد، وهو يصرخ: يا الله!..

وشاهد الحوتُ جسماً يتحرَّكُ في الماء، يغالبُ الأمواجَ العاتيةَ.. فاتَّجَهَ إليه، والتقمَه ابتلاعاً، دون أن يمزّق منه لحماً، أو يهشم له عظماً.. وقد أوحى الله تعالى إليه:

«إني لم أجعل عبدي للك رزقاً، ولكني جعلت بطنكَ له مسجداً،.. فلا تكسرنَّ له عظماً ولاتخدشنَّ له جلداً..»

ومضى الحوتُ في طريقِهِ، لايلوي على شيء..

وتابعت السفينة طريقها.. وقد ساد رُكّابها حزنٌ طفح على وجوههم جميعاً، وقد كان صاحبُهم بينهم منذ لحظات..

ثم لبثوا أن أخذهم العجبُ الشّديدُ: إذ سرعان ما عادت الريح طيّبة، رخاءً،.. وعادَ الجو إلى صحوهِ وإشراقِهِ،

بينما انصرف الحوتُ وشأنَه.. وكأنَّ شيئاً لم يكن!.

واستقرّ يونس في جوف الحوت،.. وكأنّه في جوف قبرٍ مظلمٍ، تتحرك فيه مياهٌ جيئةً وذهاباً..

وعصفت به وحشةٌ رهيبةٌ قاسيةٌ، كادت تقطع أنفاسَه..

فذكر الله، مسبّحاً له، مقدِساً إياه، وهو سجين ظلماتٍ ثلاثٍ: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة جوف الحوت.

أما المدَّة التي بقيها يونسُ في جوف الحوت، فقد اختلف العلماء والمفسّرون فيها: فمن قائلٍ: ثلاثة أيام،.. إلى قائلٍ: بل، سبعة. وقيل: عشرون يوماً. وقيل: أربعون.

ويلقي القرآن الكريم على ذلك ضوءاً، بقوله، عزّوجلَّ: ﴿وذا النّون (أي: صاحب الحوت، والمقصود به يونس)، إذ ذهب مغاضباً فظنَّ أن لنْ نقدِرَ عليه، فنادى في الظُّلُماتِ أن لا إله إلاّ أنتَ سُبحانكِ إنّي كنتُ من الظّالمين. فاستجبنا لهُ ونجّيناهُ من الغمّ وكذلك نُنجي المؤمنين﴾.

[ونحنُ نعلم بأنّ لهاتين الآيتين الكريمتين، قدراً عند الله تعالى، خاصّاً.. بحيث أُثبتت قراءتُهما في الرّكعة الأولى من صلاة الغُفيلة، بين فرضي المغرب والعشاء].

ويشاء الله تعالى أن يشمل عبده اللاّهج باسمه، برحمته.. وهو حيثُ هو.. في هذا القبر الحيِ.. المتنقِلِ به في قيعان بحار الدُّنيا!. فأوحى إلى الحوت: أن الفِظ عبديَ على الشاطئ الأمين.. ففعل!.

وخرج يونسُ - وقد قاءه الحوتُيتلمَّس طريقَه على الشاطئ، كالفرخِ الأزغب.. وقد رقَّ جلدُه بسبب ملوحةِ مياه البحر التي كان يقبع فيها، وهو في جوف الحوتِ.. ووَهنت قواه لفَرطِ ماعاناه، حتّى لكاد يُشرِف على الهلاك.

واقتعد ناحيةًمن الشَّاطئ، مفترشاً الرَّملَ.. فآذته حرارةُ الشَّمسِ.. فأنبتَ الله عليه شجرةً من يقطينٍ، فاستظلَّ فَيْأها، وتناول منها ما اقتات به بعض الشيء..

وأخذت تسري الحياةُ في أوصاله شيئاً فشيئاً.. حتى تماسك على نفسهِ واستعادَ بعض قواه الخائِرةَ.

******

يونس يعود إلى قومِه

أمّا قومُ يونسَ، فقد علموا بما أصابَ صاحبَهم النبي، الذي غادرهم وهو يتفجّر غضباً، لِماهم سادرون فيه من غيّ، وضلال.. وأيقنوا أنّه تحوّل طُعمةً لحيتان البحار، ووحوش قيعانها النّواهشِ.. فصرفوا النظرَ عنه.. وقطعوا الأملَ من عودته، ثانيةً، إليهم.. وكانوا ياسفون لموقفِهم السّابق منه، أسفاً شديداً.. ويندمون ندماً مريراً..

وكانوا، فيما بينَهم، يقولون:

- ياليت يونسَ يعودُ إلينا.. لوجدنا، إذاً، من المؤمنين، وبرسالته من المصدِقين، بعد أن منَّ الله علينا، فهدانا إلى صراطه المستقيم، واتّبعنا دينَه القويمَ!..

ولشدَّ ما كانت دهشةُ قوم يونس، عندما رأوا نبيَّهم عائداً إليهم وفي مدينتهم نينوى ذاتها.. حيث كثُرَ أتباعه، وغمَّ أشياعهُ، فهم مئة ألفٍ أو يزيدون...

ووجدوا في عودته إليهم معجزةً سماويَّةً كبرى!..

ولشَدَّ ماكانت دهشةُ يونسَ عندما وجد قومَه مسلمين مؤمنين، بعد أن تركهم، في أمسهم القريب، كافرين فاسقين!..

وأحاطت نينوى بنبيّها العائدِ إليها، مكرَمةً إياه، رسولاً كريماً، ونبيًّا أميناً.. وأدرك يونسُ أنّهُ قد استعجلَ أمر ربّه..

وليس للنبي المصطفى أن يستعجل أمر مولاه، فلله الحكمة البالغةُ.. وهكذا كان ليونس ما كان!..

ولوطالت أناتُه قليلاً لتوصّل إلى حمدي العُقبى، وجميلِ المال، ولوفّر على نفسه عناءً كثيراً، وابتلاءً عظيماً..

﴿إنّ الله بالغُ أمرِهِ قد جعل الله لِكُلِ شيءٍ قدراً﴾

ولنُصغ خاشعين إلى الله تعالى يوجز لنا قصة يونسَ، هذه، بالكلم المعجز، المتجلي في هذه الآية من الذّكر الحكيم:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإنّ يونُسَ لمن المُرسلين. إذ أبق الى الفُلكِ المشحون. فساهم فكان من المدحضين. فالتقمهُ الحوتُ وهو مُليمٌ. فلولا أنّهُ كان من المسبّحين. للَبِثَ في بطنهِ إلى يوم يُبعثُون. فنبذناهُ بالعراءِ وهو سقيمٌ. وأنبتنا عليه شجرةً من يقطينٍ. وأرسلناه إلى مئة ألفٍ أو يزيدون. فآمنوا به فمتّعناهُم إلى حينٍ﴾.

❊❊❊❊❊❊



الفهرس








مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی